إصدارات معهد العلم والعمل
مشروع القرآن علم وعمل (بالوحي نحيا)
الإطار المفاهيمي (المختصرات)

معهد العلم و العمل

اكتشاف

إعداد: د. شريف طه يونس

أسعده الله وأهله وأحبابه في الدنيا والآخرة

مكتبة الرشد ناشرون

قصة رمزية ونماذج واقعية

وقف حائرا في الصحراء، لا يدري كيف يتوجه بالضبط؟ يعلم أنه لو سار في اتجاه الجنوب لَبَلَغ مقصده، لكنه لايستطيع تحديد اتجاه الجنوب، تمنى لو كانت معه

بوصلة يتمكن بها من تحديد الاتجاهات.

حاول الاتصال بهاتفه، لكن للأسف المنطقة التي هو بها خارج تغطية شبكات الهاتف.

حاول التخمين والاجتهاد وسلك اتجاها، لكن بعد مدة طويلة من السير تبين له أنه يسلك الاتجاه الخاطىء.

أراد أن يعرف كم الساعة الآن، فلم يتمكن، تمنى لو كانت لديه ساعة.

عاد إلى بيته أخيرا، لكن بعد مشقة رهيبة، ووقت طويل.

فقـال لوالدتـه: أتدريـن يـا أمـي لـو كانـت معـي بوصلـة وسـاعة ومصباح، لما كنت تعرضت لكل تلك المشقة، وأهدرت كل ذلك الوقت، وضيعت موعدي المهم؟

فنظرت إليه والدته مندهشة، وقالـت: لقـد كان معـك كل ذلـك وأكثر!!!!

فنظـر إليهـا بنظـرة تحمـل مـن الاندهـاش أضعـاف ماحملتـه نظرتها له، وقال: كلا لم يكن معي، وإن يكن، فأين كان ذلك؟!!! فقالـت: حبيبـي، أمـا تعلـم أن هاتفـك المحمـول بـه بوصلـة وساعة وكشاف؟!! قال: لا، حسبته للاتصال فقط.

قالـت لـه باسـمةً: تستأهل، انظر أيـن أدى بـك كسـلك وإهمالـك لاستكشاف ما لديك؟

جُهْدُ خمس دقائق، كان كفيلا بتوفير معاناة خمس ساعات، بل ربما أدى بك إهمالــك لضياع عمرك، أو ضياع شيء يصعب تعويضه.

هـذه قصـة رمزيـة - لكـن لهـا نصيـب كبيـر مـن الواقعيـة - أُقَرِّب بها، ما أريد الحديث عنه من ضرورة اكتشاف ما يقدمه لنـا القـرآن، البعـض لا يعـرف عـن القـرآن إلا كونـه كتابـا مباركا نتلوه طلبا للأجر، ونحفظه طلبا لعلو الذكر.

ثم تواجهه المشكـــلات، وتعترضه العقبات، ويعاني أشد المعاناة، ويهدر من وقته وجهده وفكره وماله الكثير، ثم يكتشف أن القــرآن كان فيه حـل مشكلاته، والطرق التي يتجاوز بها عقباته

يبخل بساعة يستكشف فيها ما يقدمه له القرآن من بركات وخيرات، فيُعَاقَب بخسارة ساعـــات - بل ربما سنـوات فضلا عما يهدره من الموارد والطاقات.

يتصور نفسه قد بخل على القرآن أو على من يدعونه لمعرفة ما جاء به القرآن، لكن المسكين قد بخل على نفسه في الحقيقة وعَرَّضَها للحرمان.

وصدق الله تعالى إذ يقول:

{وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَالله الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد: ٣٨]

واسمحوا لي أن أسوق لكم كلماتٍ لرجل وقف حياته على القرآن، فعاش بالقرآن وللقرآن، وبلغ من علمه بالقرآن ومعايشته له أنه ظل يفسر سورة نوح سنةً كاملة!، لكنه لما حُبِس في نهاية حياته، منح القرآن وقتا أكثر، وإقبالا أكبر، فندم ندما شديدا، وقال:

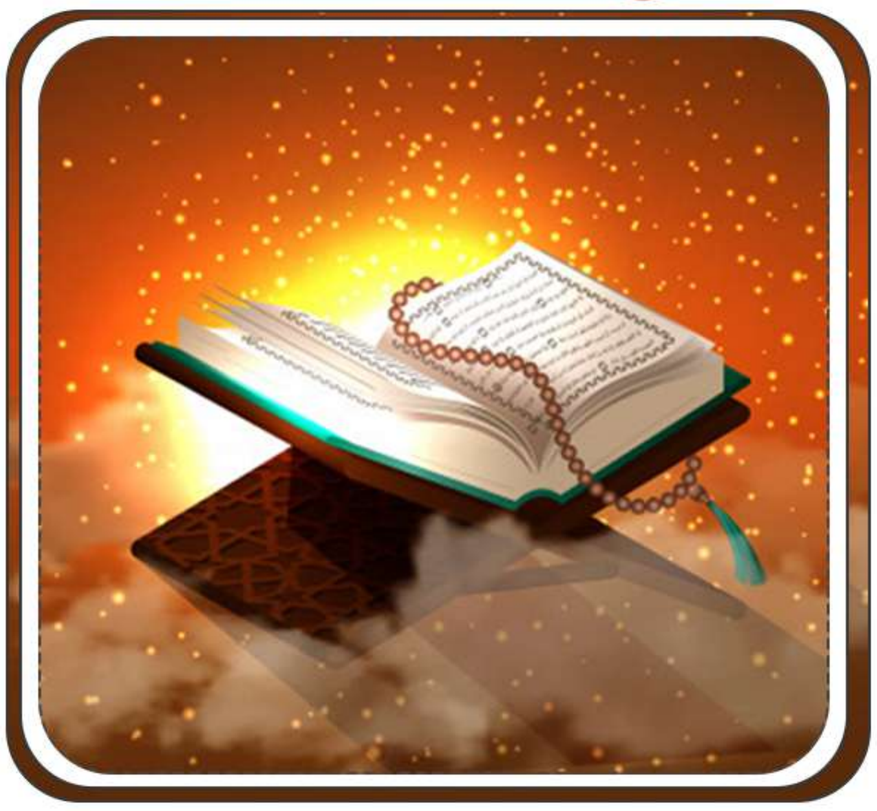

"قَدْ فتح الله عَلَيَّ فِي هذا الحصن فِي هذه المرة من معاني الْقُرْآن، ومن أصول العلم بأشياء، كَانَ كثير من الْعُلَمَاء يتمنونها، وندمت عَلَى تضييع أَكْثَر أوقاتي فِي غَيْر معاني الْقُرْآن"[1].

قالها ابن تيمية رحمه الله، بعدما خلا بكتاب اللّه وكَابَد معانيه، فختمه أربعا وثمانين ختمة تدبرية.

[1] ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٥١٩)، العقود الدرية (ص: ٤٤).

وكان آخر ما عاش معه من كتاب الله قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾.

إنه يقول ذلك، وهو مَنْ هو في عنايته بكتاب الله،

فماذا نقول نحن؟

ومِـن قَبْلِـه وقـف خالـد بـن الوليـد رحمه الله حياته على رفع راية القرآن.

وسَخَّرَ وقته وجهده وماله وفكره لفتح البلدان؛ لاستقبال أنوار القرآن، لكنه لما كان يتصل بالقرآن، ويكتشف من بركاته، وينهل من أنواره وثمراته، كان لا يملك إلا أن يقول بلهجة المحزون النادم:

«شَغَلَنِي الْجِهَادُ عَنْ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ»[1] ، وفي رواية أخرى:

«لَقَدْ شَغَلَنِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله عَنْ كَثِيرٍ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»[2]

[1] فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ١٨٩)

[2] فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ١٨٩)

فما الذي يشغلنا نحن عن القرآن؟

وبماذا نعتذر لربنا عن تقصيرنا في اكتشاف كنوز القرآن؟

ماذا سنقول لربنا؟!!!

شغلني الفيس بوك وتويتر عن القرآن ..

شغلتني الأفلام والمسلسلات عن القرآن ..

شغلتني القصص والروايات عن القرآن.

وليس خالد وابن تيمية رضوان الله عليهما فقط هما مَنْ أرسلا لنا رسائل تدعونا للعناية بالقرآن وتقديمه على ما سواه؛ فها هو

سفيان الثوري، يقول:

"لَيْتَني كنتُ اقتصرتُ على الْقُرْآن"

ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعي رحمه الله في السَّحَر وبين يديه المصحف، فقال:

(أي: الشافعي)

"شغلكم الفقه عن القرآن، إني لأصلي العَتَمَةَ، وأضع المصحف بين يدي فما أُطْبِقُه حتى أُصبح"

[1] العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (١/ ٤٦٩)

[2] مناقب الشافعي للبيهقي (١/٢٨١)، البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٦٢).

وها هو ذا مُحَدِّث زماننا
أبو إسحاق الحويني

يقول في مقطع فيديو مشتهر له على شبكة الإنترنت، لما أُتيحت له فرصة أكبر في مرضه ليخلو بكتاب الله:

"فلما أتيح لنا أن نخلو بكتاب ربنا وبسنة نبينا، انكشف كثير من الغطاء، وتذكرت شيخ الإسلام ابن تيمية ... خلا ابن تيمية بنفسه وسَجَّل ندمه على أنه لم يفرغ نفسه للقرآن، خلا بكتاب ربه في قعر السجن وأعطى قلبه لهذا الكتاب المجيد، فكان له أكبر الأثر على نفسه، كثير من الآيات كان الواحد يقرأها ولا يقف كثيرا عند معانيها، تسنى لي أن أجلس وأن أفعل هذا، فياليتني أعطيتُ القرآن عمري"

- لقد أحصى أحد الباحثين عدد العلماء الأفاضل الذين سَجَّلوا ندمهم على أنهم لم يفرغوا وقتاً أكبر لمعاني القرآن، فوجد أنهم يزيدون على العشرين فيما تمكن هو من إحصائه، وفيما وصلنا.

فماذا يريد الواحد منا بعد ذلك؟

أولئك الأكارم الذين انشغلوا بمعالي الأمور وكانت لهم عناية كبيرة بالقرآن يسجلون ندمهم على أنهم ما فَرَّغوا لمعاني القرآن وقتاً أكبر مما فرغوه، رغم أن ما فَرَّغوه للقرآن من أوقاتهم وأعمارهم ليس بالقليل؟

فماذا يقول الواحد منَّا، وهو بالكاد يُفَرِّغ لمعاني القرآن وقتاً قصيراً كل يوم، وربما كل أسبوع، وربما كل شهر؟

إنهم يرسلون إلينا بقلوبهم قبل ألسنتهم رسائل تخترق حواجز الزمان والمكان، وتخاطب كل إنسان، لتسكن الوجدان لا الآذان، وتصرخ فينا:

أين أنتم من مَعاني القرآن؟

لماذا ما أعطيتموه عمركم؟

لماذا ما آثرتموه بأوقاتكم ومجهوداتكم؟

ما بالكم تؤثرون عليه هواتفكم؟

ما بالكم تهجرونه وهو أنفع شيء لكم؟

إنني تقريبا لم أحضر قط مجلسا لتدبر القرآن، إلا وأسمع من الحاضرين، عباراتٍ شتى، تؤول جميعا ويمكن إجمالها في التالي: "أشعر أنني لم أكن أعرف هذه الآية أو السورة من قبل رغم أنني قرأتها كثيرا" ، "اليوم فقط اكتشفت ما فيها من الخير والبركة والهداية"، "أنا نادم على إهمالي اكتشاف ما يقدمه لي القرآن"، "هذه الآية كانت كفيلة بتوفير وقت وجهد كبيرين، وكانت كفيلة بزيادة معدل النجاح والسعادة زيادة كبيرة".

كل مشكلة نحياها، سببها آية أو سورة أهملناها

اسمحوا لي أن أؤكد لكم باختصار شديد أن "كل مشكلة نحياها؛ سببها آية أو سورة أهملناها"؛ لأن الله إنما أنزل هذا الكتاب ليهدينا للتي هي أقوم، ويشفينا ويُرَقِّينا، ويخرجنا من الظلمات إلى النور؛ ويعصمنا من الضلال والشقاء والشرور؛ وينقلنا من الحزن والقلق إلى الطمأنينة والسرور.

إن معظم أعراض مشكلات البشرية تؤول إلى هاتين المشكلتين؛

فأغلب المُكَدِّرات والمصائب تتسبب إما في

خوف أو حزن

(انشغال وقلق على ما هو آت) (انشغال وتَأَسُّفٌ على ما فات)

فمَن حصلت له مُشكلة في عمله أو دراسته أو أُسَرَتِه تجده إما أن يكون خائفاً، وإما أن يكون حزيناً، وإما أن يجمع بينهما.

بل إن مُعْظَم ما يُسَمَّى بالأمراض النفسية يمكن اختصاره تقريبا في عائلتين كبيرتين:

الأولى الاكتئاب (Depression).

والثانية: القلق (Anxiety) والرُهاب (Phobia).

وإذا تأملنا في أشهر أسباب المشكلات والمُكَدِّرات في حياة البشر نجد على رأسها نقص القوة العلمية (الضلال أو لا أعرف)،

أو نقص القوة العملية (الشقاء أو لا أَقْدِر)

أو نقصهما معاً (لا أعرف ولا أقدر).

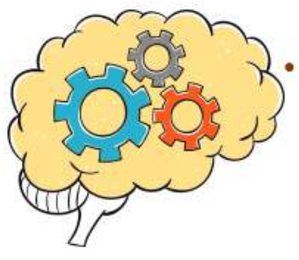

والسؤال الآن: كم تدفع من المال أو الوقت أو الجهد لتكون في عصمة من هذه الأمور الأربع (الخوف والحزن والضلال والشقاء)؟

وكأنني بك تقول متعجبا: كم أدفع!!!

إن عامة جهدي ووقتي ومالي في هذه الدنيا مصروف لتخفيف تلك الأشياء.

فما رأيك بهذه الفرصة العظيمة؟! الله يَعِدُكَ، وليس أنا فقط،

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]،

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

لقد وعدَ نوعاً من الناس بأنه {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}، وبأنه {لا يضل ولا يشقى}،

لكنه اشترط لذلك شرطاً؛

فهل أنت مُسْتَعِدٌ للإتيان بالشرط؟

الشرط باختصار كان هو

العناية بمعاني الوحي

(تفهما وتدبراً واتباعاً).

فقد قال اللّه ﷻ واعداً

بالعصمة والبراء من الضلال والشقاء:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وقال ﷻ واعداً

بالعصمة والأمان من المخاوف والأحزان:

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وصدق ربنا عزوجل إذ يقول:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وصدق رسولنا ﷺ إذ يقول:

"لَوْ كَانَتْ سُورَةٌ وَاحِدَةٌ لَكَفَتِ النَّاسَ"[١] ،

فكيف والقرآن ١١٤ سورة؟!

[١] رواه أحمد وأبو داوود وهو في الصحيحة (٣٩٥)، قيل: المراد بها سورة الفاتحة في الصلاة، أو سورة واحدة بعدها، وقال في المنيحة (١/٢٢١): "يعني أن سورة واحدة لو قرأها المصـــل متدبرًا لها لكفته لو عمل بها"

وما أروع كلمات عُمَر بْن الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ، حين قال:

"مَا أَمَرَ الله تَعَالَى بِشَيْءٍ إِلَّا وَأَعَانَ عَلَيْهِ، وَلَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَأَغْنَى عَنْهُ"[1].

وقال الحسن رضي الله عنه:

"إن الله تعالى أمر بالطاعة وأعان عليها، ونهى عن المعصية وأغنى عنها"[2] .

وصَدَقَا والله في التعبير عن الكفاية والغناية والهداية الشاملة المتكاملة التي جاء بها كلام الله سبحانه وبحمده؛ فقد جاء بالأمر وما يعين عليه، والنهي وما يغني عنه، ولم يُحوج البشر إلى أحد.

الكفاية

الغناية

الهداية

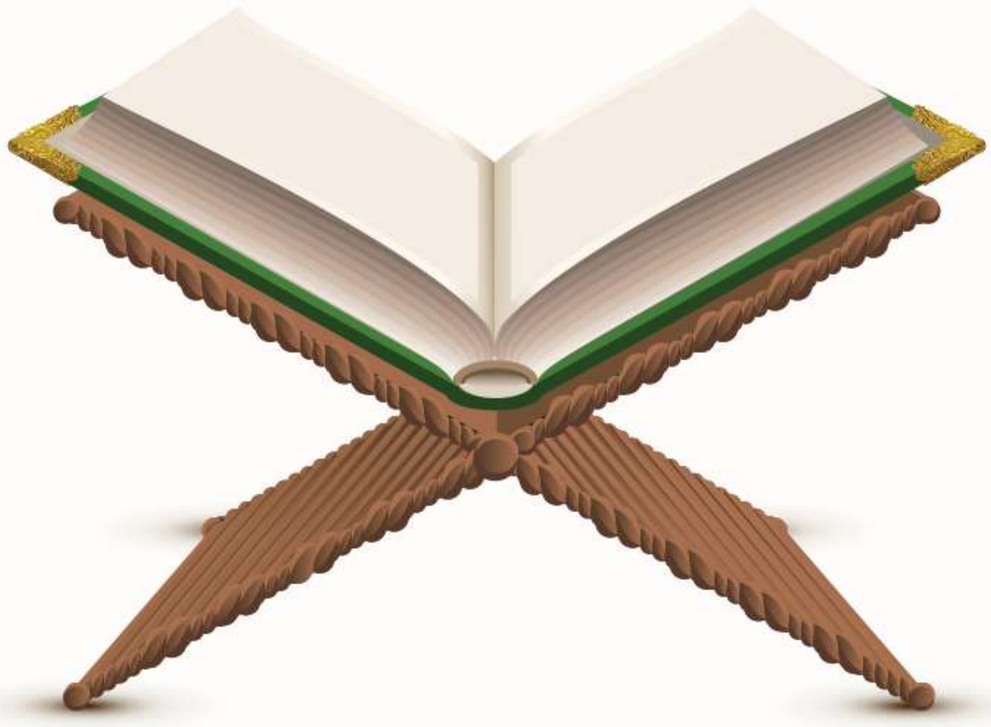

[1] أدب الدنيا والدين (ص: ٣٢٢)، وانظر: التمثيل والمحاضرة (ص: ٨)
[2] الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح (ص: ٩٥)

ما أعجب أن يكون لدى الإنسان كنز،

لكنه لا يعرف فضله ولا يقدره حق قدره،

فضلا عن أن يسعى إلى حُسْن الانتفاع به!!!

إننا بحاجة حقاً إلى إدراك كنزية القرآن والتعرف عليها

كَنْزِيَّة القرآن

إن من المعاني المهمة في التعامل مع كتاب الله؛ الانتباه لكنزيته؛ والكنز في اللغة والعُرف يجمع أموراً:

إنه يعبر عن الشيء الثمين النفيس؛ فلا يكنز الإنسان شيئاً رخيصا رديئا.

وهو أيضا يعبر عن الشيء الذي يُقتنى ليُنْتَفَع ويُستَغنى به في وقت الحاجة.

"وَتُسَمِّي العربُ كلَّ كَثِيرٍ مَجْمُوعٍ يُتَنَافَسُ فِيهِ كَنْزًا"[1] .

وإذا تأملنا ما يقدمه لنا القرآن نجد أنه ينطبق عليه وصف (الكنوز)؛ لأنه يقدم لنا ما هو أنفس وأثمن من الدنيا وما فيها؛ فيقدم لنا مثلا الرحمة؛ وقد قال ربنا:

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

[1] لسان العرب (٥/ ٤٠١)

كمـا أن تلـك الأشـياء التـي يقدمهـا لنـا القـرآن ينبغـي علينـا العناية التامة بها واقتناءها؛ وذلك يكون بتمام التعرف عليها (علماً)، وكمال استخدامها والانتفاع بها (عملاً).

علمـــأ	وعمـــلا

ولقد أوصى النبي ﷺ صراحة باقتناء القرآن؛ فقال:

«تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللهِ وَتَعَاهَدُوهُ، وَتَغَنَّوْا بِهِ، وَاقْتَنُوهُ»[1]

ومعنى (واقتنوه) أي: الزموه علمًا وعملًا [2].

وقال أبو عبيد: "قَوْلُهُ: تَغَنَّوْهُ، يَقُولُ: اجْعَلُوهُ غِنَاكُمْ مِنَ الْفَقْرِ، وَلَا تَعُدُّوا الْإِقْلَالَ مَعَهُ فَقْرًا. وَقَوْلُهُ: تَقَنَّوْهُ، يَقُولُ: اقْتَنُوهُ كَمَا تَقْتَنُونَ الْأَمْوَالَ، وَاجْعَلُوهُ مَالَكُمْ"[3] .

إننا نعتبر بعض كلمات الناس كنوزاً؛ لأنها مفاتيح كنوز، وطرائق للفوز، فما بالكم بكلام الله عزوجل؟!!!

[1] سنن الدارمي (٣٣٩١)، وصححه الألباني والأرناؤوط ومحقق سنن الدارمي.
[2] ينظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٤٥٢)، وفيض القدير (٣/ ٢٥٥).
[3] فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٧١).

قال ﷺ: "يقول الله تعالى:

من شغله قراءة القرآن عن دعائى، أعطيته أفضل ثواب الشاكرين"[1] .

وقال ﷺ: "إن فَضْلَ كَلَامِ الله عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ، كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ"[2]

بل إنه ﷺ استخدم كلمة كنز لوصف بعض آيات القرآن

فأخبر أن خواتيم البقرة:

"مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ"[3]

واستخدم ﷺ أيضا كلمة كنز لوصف بعض الكلمات التي جاءت في القرآن.

فقد أخبر أن الحوقلة

(لا حول ولا قوة إلا باللّه)

"مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ"[4].

وأخبر أنها "كَنْز مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ"[5]

[1] اختلفوا في تصحيحه، وحسنه الترمذي وصاحب تنبيه القارئ (١/ ١٠١).
[2] فضائل القرآن لابن كثير (ص: ٢٧٤)، وحَسَّنَه الحويني في تحقيقه للكتاب.
[3] رواه أحمد (٢٣٢٩٩), ومسلم: ٤ - (٥٢٢)
[4] انظر: الصَّحِيحَة (٢١٦٦)، صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (٨١١ ، ٢٥٢٥).
[5] الصَّحِيحَة (١٥٢٨). وفي النهاية (٤/ ٢٠٣): "أي: أجرها مُدَّخَر لِقَائِلِهَا وَالْمُتَّصِفِ بِهَا كَمَا يُدَّخَرُ الْكَنْزُ".

وقال ﷺ لشداد بن أوس:

"إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ،

فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ:

اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ،

وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ،

وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ،

وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ،

وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا،

وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَم،

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ،

وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ،

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"[1]

[1] رواه ابن حبان (٩٣٥)، وأحمد (١٧١٥٥)، انظر: الصَّحِيحَة (٣٢٢٨)، وفي رواية أنه ﷺ قال ذلك للناس جميعاً: "إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ".

ويُشَبِّه النبي ﷺ العلم بالكنز؛ فيقول ﷺ مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ ثُمَّ لَا يُحَدِّثُ بِهِ، كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنِزُ الْكَنْزَ فلَا يُنْفِقُ مِنْهُ"[1]،

وفي رواية: "عِلْمٌ لَا يُقَالُ بِهِ ، كَكَنْزٍ لَا يُنْفَقُ مِنْهُ"[2]

وفي قوله تعالى ﴿وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما﴾

قال ابن عباس: "سمعنا أنّ ذلك الكنز كان علما، فورثا ذلك العلم"[3]

[1] انظر: صَحِيح الْجَامِع (٥٨٣٥)، الصَّحِيحَة (٣٤٧٩)

[2] أخرجه أحمد (١٠٤٨١)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٤٠٢٣)

[3] الدر المنثور (٤٣١/٥)

لقد قال المشركون عن النبي ﷺ

﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ [هود: 12]،

فكان ردُّ الله عليهم إشارة واضحة إلى كَنْزِيّة القرآن وتَفَرُّده؛

فقال بعدها مباشرة في تَحَدٍّ واضح:

﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

كيف لا يكون كنزاً، وقد أُنْزِل بعلم اللّه الذي لا إله إلا هو؟

وكيف لا يكون كنزاً، وما يحمله من خير للإنسان هو مفتاح كل الكنوز؟

إن الرب الذي أنزل هذا الكنز الإيماني العظيم والكتاب الكريم، لا يعجزه أن ينزل أعظم كنوز الدنيا المادية.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

لأن الكـون كلـه ملكـه،

ولكـن الماديين لا يفقهـون،

ولا يقـدرون النعمـة حـق قدرها؛ لذا قال ربنا:

وَوَصَّى ربنا عباده المؤمنين بذكر وشكر نعمة (الكنز العظيم، والكتاب الكريم)؛ فقال تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]

وقال سبحانه وبحمده لنبيه ﷺ ولنا معه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨].

فَكيف يَمُدُّ المرء عينيه إلى الكنوز الدنيوية المادية يحزن عليها، وقد آتاه الله أعظم الكنوز الإيمانية؟

قال أبو بكر بن العربي: "قَدْ أَعْطَيْنَاك الْآخِرَةَ، فَلَا تَنْظُرْ إلَى الدُّنْيَا، وَقَدْ أَعْطَيْنَاك الْعِلْمَ فَلَا تَتَشَاغَلْ بِالشَّهَوَاتِ، وَقَدْ مَنَحْنَاك لَذَّةَ الْقَلْبِ فَلَا تَنْظُرْ إلَى لَذَّةِ الْبَدَنِ، وَقَدْ أَعْطَيْنَاك الْقُرْآنَ فَتَغَنَّ بِهِ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ أَيْ لَيْسَ مِنَّا مَنْ رَأَى بِمَا عِنْدَهُ مِنْ الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَيْسَ بِغَنِيٍّ حَتَّى يَطْمَحَ بِبَصَرِهِ إلَى زَخَارِفِ الدُّنْيَا، وَعِنْدَهُ مَعَارِفُ الْمَوْلَى، حَيِيَ بِالْبَاقِي،فَغَنِيَ عَنْ الْفَانِي"[1].

قال ابن عاشور: "فَإِنَّ مَا أُوتِيتَهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فَلَوْ كَانُوا بِمَحَلِّ الْعِنَايَةَ لَاتَّبَعُوا مَا آتَيْنَاكَ وَلَكِنَّهُمْ رَضُوا بِالْمَتَاعِ الْعَاجِلِ فَلَيْسُوا مِمَّنْ يُعْجِبُ حَالَهُمْ"[2].

وقال السعدي في تفسيره (ص: ٤٣٤):

"أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون ...

ولذلك قال بعده: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ...﴾"[3]

[1] أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٣)
[2] التحرير والتنوير (١٤/ ٨٢)
[3] تفسير السعدي (ص: ٤٣٤)

وجاء في المرشد الوجيز (١/٢٠٩): "أي ما رزقك الله من القرآن خير وأبقى مما رزقهم من الدنيا"[١]

وقال سُفيان بن عيينة: "مَن أُعطي القرآن، فَمَدَّ عينيه إلى شيءٍ مِمَّا صغَّر القرآنُ فقد خالَفَ القرآنَ؛

ألم تسمع قوله تعالى:

﴿وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾" .

ومن قبله قال عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو: «وَمَنْ أُعْطِيَ الْقُرْآنَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ اللهُ، وَعَظَّمَ مَا حَقَّرَ اللهُ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجِدَّ فِيمَنْ يُجِدُّ (أي: أن يكون حاداً في أسلوبه)، وَلَا يَجْهَلَ فِيمَنْ يَجْهَلُ (أي: يشتم ويقع في الجهل)، وَلَكِنْ لِيَعْفُ وَلْيَصْفَحْ لِحَقِّ الْقُرْآنِ»[٢]

[١] فتح القدير (٣/ ٢٠٦)

[٢] شعب الإيمان (٤/ ١٧٧)

لذا فإننا بحاجة إلى اكتشاف ذلك (الكنز)،

وتحصيل أكبر قدر من الانتفاع بكنزيته، وذلك يستلزم منا البحث والتنقيب والتقليب حتى نستخرج علوم القرآن الكريم التي هي أعظم كنوز الدنيا، وأفضل ما يكتنزه المرء.

وذلك البحث والتنقيب والتقليب بالمدارسة والمفاتشة

هو ما أطلق عليه ابن مسعود (تثوير القرآن)

تأكيداً على كون القرآن أعظم الكنوز وأنفس النفائس وأولاها بالتثوير.

فما هو التثوير؟

وكيف يكون؟

هذا ما نتعرف عليه في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

تثوير القرآن

لقد كان من هدي السلف، "**تثوير القرآن**" وهي عبارة أشبه ما تكون بعبارة **اكتشاف القرآن**.

قال ابن مسعود: «إِذَا أَرَدْتُمُ الْعِلْمَ؛ فَأَثِيرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ»[1].

ووردَ بألفاظٍ متعددةٍ منها: «مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ»[2] ، وفي رواية: «ثَوِّرُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»[3] .

وفي التثوير معنى التقليب والبحث والتنقيب، وكلها من أدوات الاكتشاف ولا شك، قال ابن عطية:

"وتثوير القرآن:

مناقشته ومدارسته والبحث فيه"[4].

[1] فضائل القرآن للفريابي (ص: ١٨٢)
[2] الإتقان في علوم القرآن (٤/٢٢٦)
[3] علوم القرآن عند الإمام الشاطبي (١٨٨).
[4] المحرر الوجيز (١/٣)

وقال ابن منظور: "ثَوَّرْتُ الأَمر: بَحَثْتُه، وثَوَّرَ القرآنَ: **بَحَثَ عَنْ مَعَانِيهِ وَعَنْ عِلْمِهِ**" .

ويقـول الشـعراوي: "«**ثَـوِّروا القـرآن**» أي: قَلِّبـوا معانـي الآيـات لتجدوا مافيها من كنوز" ، ويقول في موضع آخر: "أثيروه، كي تكتشفوا ما فيه من كنوز"

ولاكتشاف ما يقدمه لنا القرآن، نحتاج إلى رحلتين

الأولـى منهمـا؛ نبحـث فيهـا عمـا يقدمـه لنـا القـرآن مجمـلا مـن خـلال أسـمائه وصفاتـه وخصائصـه وسـماته المميـزة، ككتـاب فريـد، وهـذا مـا يتـم مـن خـلال التثويـر الإجمالي.

والثانيـة: نبحـث فيهـا عمـا تقدمـه لنـا كل كلمـة وكل آيـة وكل سـورة علـى التفصيـل، وهـذا مايتـم تناولـه مـن خـلال التدبـر والتثويـر التفصيلي.

[1]لسان العرب (٤/ ١١٠)
[2] تفسير الشعراوي (١١/ ٦٤٤٥)
[3]تفسير الشعراوي (١٢/ ٧٣٥٦)

وتجدر الإشارة إلى أن التثوير مستويات

لأنه يرتبط ارتباطا كبيرا بالقدرات والمؤهلات والأدوات.

فَمِن الناس مَن تقف قدراته ومؤهلاته عند الفهم الإجمالي لذا فإن ما سيثوره من المعاني سيكون إجماليا. ومنهم مَن تكون قدراته ومؤهلاته أكبر مِن ذلك فيكون تثويره أكثر عمقا.

الحاصل أن لكلٍ واحد من الناس نصيب من التثوير ولا بد؛

لكن الأهم ألا يتجاوز المرء حده أو يتخوض فيما لا يحسنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

"ومن المعلوم أنه في تفاصيل آيات القرآن من العلم والإيمان ما يتفاضل الناس فيه تفاضلاً لا ينضبط لنا. والقرآن الذي يقرأه الناس بالليل والنهار يتفاضلون في فهمه تفاضلاً عظيماً، وقد رفع الله بعض الناس على بعض درجات... والقرآن مورد يرده الخلق كلهم، وكل ينال منه على مقدار ما قسم الله له"[1].

[1] درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٤٢٧)

من ثمرات اكتشاف القرآن

(١) زيادة الإيمان بالقرآن، والإقبال عليه، وتقديره حق قدره

فالإنسان كلما عرف عن فوائد الشيء وثمراته، كلما ازداد إقباله عليه، ومساحة إيمانه بجدوى شيء من الأشياء يتناسب طرديا مع مساحة معرفته بالسمات المميزة لذلك الشيء فيما يتعلق بما هو بصدده.

ومن ثَمَّ لايقدر القرآن حق قدره، إلا من أدرك فضله وعظمته. فكثير من المسلمين اليوم لايقدرون القرآن حق قدره، ولاينزلونه منزلته؛ لأنهم لايعرفون فضله وماتفرد به، لكنهم لو عرفوه لعظموه وأقبلوا عليه إقبالا يليق به.

ولعل ذلك يفسر إعراض البعض عن القرآن، وعدم قناعتهم الكاملة بدوره في الإصلاح أو الإسعاد؛ لأن ذاك الذي لا يعرف فضل القرآن على ما سواه سيفرط فيه، ويضيعه.

كما قال عمر رضي الله عنه: "إِنَّمَا تنقض عرى الْإِسْلَام عُرْوَة عُرْوَة إِذا نَشأ فِي الْإِسْلَام من لَا يعرف الْجَاهِلِيَّة"[1]

إن المعرفة الكاملة بفضائل القرآن وبركاته، من شأنها أن تزيد الإيمان به وبدوره في الارتقاء بواقع الأفراد والمجتمعات، ومن ثَمَّ تزداد الدافعية لتلقي القرآن تلقيا يليق به. ولعل ما ذكره الصحابة رضي الله عنهم من كونهم قد تعلموا "الإيمان قبل القرآن" يدخل فيه تعلم ما يزيد القناعة والإيمان بدور القرآن في الارتقاء بواقع الإنسان.

(٢) تحقيق الانتفاع الأكمل بالقرآن

فَمَن عَرَف الخصائص الشفائية للقرآن مثلا، وأضاف إلى ذلك الاجتهاد في حفظه، سيكون بلا شك أكثر انتفاعا وسعادة به ممن حفظه ولم يعرف ذلك.

[1] المنتقى من منهاج الاعتدال (ص: ٢٩٧)

(٣) تحقيق مراد اللّه منا فيما يتعلق بالقرآن

فأنَّى للإنسان أن يكون من أهل القرآن أو أصحابه أو حملته، وهو لا يعرف خصائصه وسماته المميزة وما جاء به من بركات!!!

إن العبد لا يكون من أهل تلك الأوصاف إلا بالعمل بالقرآن، ومعرفة العبد بما سلف تزيد دافعيته للعمل وتسهل له سبل الاتباع،وبالتالي تعينه على التحقق بتلك الأوصاف الشريفة التي تلخص مراد الله منا فيما يتعلق بالقرآن.

- وهل رأيتم يوما، صاحبا لايعرف ما يتميز به صاحبه، ثم يزعم أنه أولى الأصحاب بصاحبه؟!
- هل رأيتم يوما أحدا يزعم أنه أعرف وأولى الناس بواحد من أهله وهو لا يعرف ما تفرد به؟!
- هل رأيتم يوما رجلا يدعي أنه يحمل أمانة ما ويقوم بحقوقها كاملة وهو لا يعرف قدر هذه الأمانة ولايدرك منزلتها؟

أما يرتبط حرصه على التكفل بهذه الأمانة واستعداده لتحمل المشاق والتضحية من أجلها بمعرفته بقدرها ومنزلتها وما تفردت به؟

أعطيتَ مدرساً يعمل معك في مؤسستك التعليمية كتابا، وطالبتَه بأن يحفظه ويعلمه للطلاب؛ ثم ذهبتَ وتركتَه دون أن تحدثه عن هذا الكتاب.

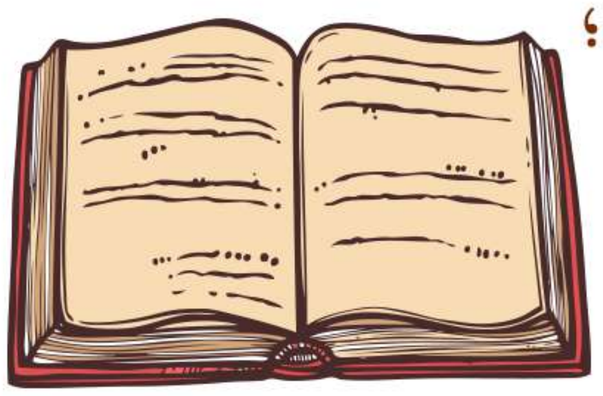

عُدتَ إليه بعد شهر فسألته عما طالبتَه به؛ فلم تجده قد فعل منه شيئا؛ فسألته عن السبب؛ فقال لك: لماذا هذا الكتاب بالذات؟

لا أجد ما يدفعني لفعل ما تطلبه مني فيما يتعلق به.

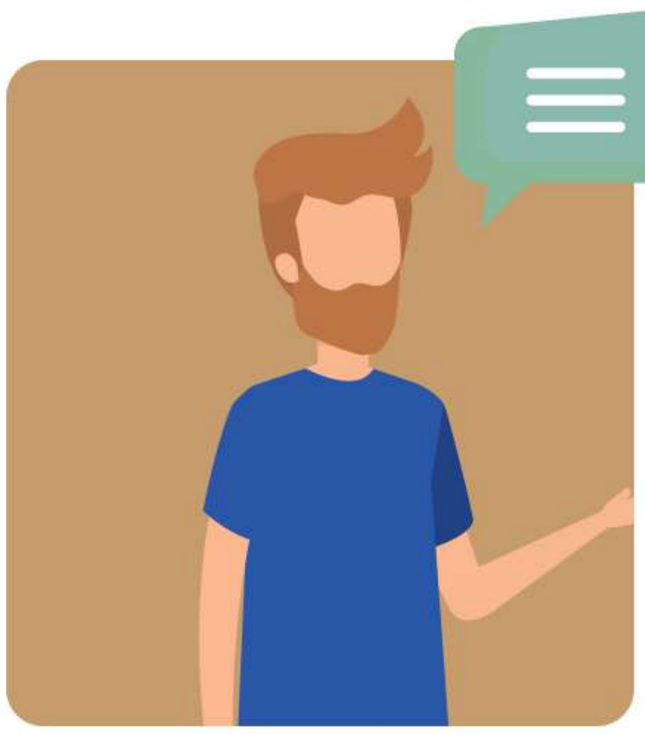

فشرعتَ تحدثه عن مؤلف الكتاب، والسمات المميزة للكتاب، وما يقدمه الكتاب له وللطلاب.

ثم تركته، وعدتَ إليه بعد شهر فوجدتَه قد فعل ما طالبتَه به وزاد عليه.

لله المثل الأعلى؛ هذا مثال نوضح به المقال، ونُقَّرب به الحال والمآل؛ لنؤكد على أن تقدير الإنسان لقيمة القرآن؛ ومساحة انتفاعه به، واستعداده للقيام بما ينبغي عليه من واجبات تجاه القرآن، يرتبط ارتباطا كبيرا بمساحة إدراكه لفضل القرآن وما يقدمه له.

(٤) استثمار الإمكانيات وعدم إهدار الطاقات

فبعض الناس يظل يبحث عن منهاج للسعادة لسنوات، وينفق لأجله الأموال والمجهودات، ثم يعود خائبا، ويرجع حسيرا خاسرا، قد أهدر طاقاته، وضيع أوقاته، ولو تَعَرَّف من البداية على ما جاء به القرآن، وأدرك دوره في إسعاد الإنسان، لحمى نفسه من المشقة وتجنب ذلك الضياع والحرمان.

نطوي الأراضي أرضاً أرضاً، ونجوب البلاد طولاً وعرضاً، نبحث عن الفلاح والسعادة، ونلتمس التفوق والريادة.

نطلب حلول ما نلاقيه من مشكلات، ونطمح إلى شفاء ما نعانيه من أمراض مهلكات، نبغي صلاح الحال، ونتشوف إلى راحة البال، نصبو إلى إقالة عثراتنا، ونلتمس العون على الإفاقة من كبواتنا

وبين أيدينا أقصر وأسهل وأفضل الطرق إلى تحقيق كل هذا وغيره الكثير والكثير مما فيه صلاح دنيانا وأخرانا.

الدواء - بل الشفاء - أقرب ما يكون إلينا، ونحن أبعد ما نكون عنه، لقد جعلناه بيننا كالحاضر الغائب، حاضر بمبانيه، لكنه غائب عن واقعنا بمعانيه، ومعزول عما نعايشه ونعانيه.

قال ابن القيم: "الْقُرْآنُ هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا كُلُّ أَحَدٍ يُؤَهَّلُ وَلَا يُوَفَّقُ لِلِاسْتِشْفَاءِ بِهِ، وَإِذَا أَحْسَنَ الْعَلِيلُ التَّدَاوِيَ بِهِ، وَوَضَعَهُ عَلَى دَائِهِ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ،

وَاعْتِقَادٍ جَازِمٍ، وَاسْتِيفَاءِ شُرُوطِهِ، لَمْ يُقَاوِمْهُ الدَّاءُ أَبَدًا ...
فَمَا مِنْ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ
إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ سَبِيلُ الدِّلَالَةِ عَلَى دَوَائِهِ
وَسَبَبِهِ، وَالْحَمِيَّةِ مِنْهُ لِمَنْ رَزَقَهُ الله
فَهْمًا فِي كِتَابِهِ"

قال طرْفَةُ بنُ العبدِ:

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعيسِ فى البيداءِ يقتُلُهَا الظَمَا والماءُ فوقَ ظُهُورهَا محمولُ

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي:

فَقُلْ لرسولِ اللهِ! يا خيرَ مُرْسَلٍ أَبُثُّكَ مَا أَشْكُو مِنَ الحَسَـرَاتِ
شُعُوبُكَ في شرقِ البلادِ وَغَرْبِهَا كَأَصْحَابِ كَهْفٍ في عَمِيقِ سُبَاتِ
بِأَيمَانِهِمْ نُورَانِ ذِكْـرٌ وَسُنَّـةٌ فَمَا بَالهُم في حَالِكِ الظُّلُـمَاتِ

مراحل اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن

المرحلة الأولى: مظاهر حاجة الإنسـان إلى القرآن.

ويأتي على رأس ذلك؛ حاجة الإنسان لِـمَعرفة الرحمن، وحاجة الإنسان لِـمَعرفة نفسه كإنسان.

وهذا القسـم تمت مناقشته بالتفصيل في الجزء الأول من كتاب (رحلة اكتشـاف ما يقدمه لنا القرآن).

المرحلة الثانية: ما يقدمه لنا القرآن من خلال أسـمائه وصفاته:

ويأتي على رأس ذلك؛ الإيمان، والهداية، والسعادة، والإصلاح، والرحمة، والشفاء، وغيرها من الأوصاف والأدوار التي وُصِفَ بها القرآن في الكتاب والسنة.

وهذا القسـم سنناقشه بالتفصيل في الجزء الثاني من كتاب (رحلة اكتشـاف ما يقدمه لنا القرآن) إن شـاء الله.

المرحلة الثالثة: ما يقدمه لنا القرآن من خلال

تحقيقنا لمراد اللّه منا فيما يتعلق بطبيعة علاقتنا به:

فإن كُنا من أهله كان سببا في أن نكون من أهل الله.

وإن كنا من أصحابه استجلب لنا الارتقاء في درجات الجنة وحلل وتيجان الوقار والكرامة.

وإن كنا من حامليه استجلب لنا الإجلال عند الله وعند الناس ... وهكذا.

كل زاوية من زوايا العلاقة بالقرآن نراعيها ونحرص عليها تقدم لنا شيئا فريدا.

وهذا القسم تمت مناقشته بالتفصيل في كتاب "رحلة البحث عن أهل القرآن [النسخة المسطورة]".

وسنتناوله في الجزء الثالث من كتاب (رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن) بإذن الله.

المرحلة الرابعة: ما يقدمه لنا القرآن من خلال قيامنا بحقوقه:

فإن قرأناه مثلا كان لنا بكل حرف حسنة.

وإن سمعناه استجلب لنا الرحمة.

وإن تدبرناه أصلح لنا قلوبنا.

وإن اتبعناه عصمنا من الضلال والشقاء ... وهكذا.

كل حق من حقوق القرآن نراعيه ونحرص عليه يُقَدِّم لنا أبوابا من الخير والأجر.

وهذا القسم تمت مناقشته بالتفصيل - بفضل الله - في كتب (الهروب من الفهم، ورحلة البحث عن أهل القرآن [النسخة المسطورة]، وتيسير التدبر).

وسنتناوله في الجزء الرابع من كتاب

(رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن) بإذن الله.

المرحلة الأولى

حاجة الإنسان إلى القرآن

تمهيد

أحسن الحديث

المحطة الأولى: حَدِّثْنِي عنك

(حديث القرآن عن الرحمن)

المحطة الثانية: حَدِّثْنِي عني

(حديث القرآن عن الإنسان)

تمهيد

اعتاد الناس إذا أرادوا أن يُعَبِّروا عن حاجة الإنسان الشديدة لشيء ما أن يقولوا: "الحاجة إلى هذا الأمر كالحاجة للماء والهواء والغذاء".

لكنني أُعْلِن هنا للعالم أجمع أن:

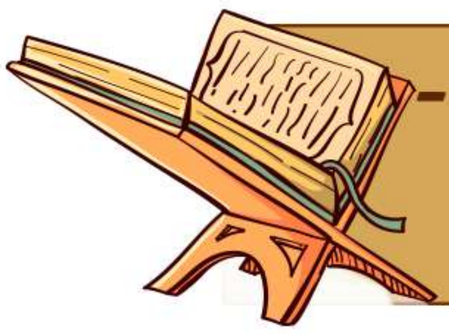

"حاجة الإنسان للقرآن أعظم - ملايين المرات - من حاجته للماء والهواء والغذاء".

ولا تحسبوا أنني أبالغ

فقد كنتُ مثلكم يداخل قلبي أحيانا لَمَّا أسمع مثل تلك العبارات شعور بأنه ربما كان فيها بعض المبالغة.

لَكنني لما ذُقْتُ عَرَفت، فلما عَرَفتُ اغترفت.

ويقولون: "لا يعرف الشوق إلا مَن يكابده، ولا الصبابة إلا مَن يعانيها".

ومَن جَرَّب مثل تجربتي، عَرَفَ مثل معرفتي.

اكتشـاف

وفـي السـطور التاليـة عَـرضٌ (مُوجـزٌ) لبعـض مظاهـر وحيثيـات حاجة الإنسان للقرآن؛ فطَالِعها بقلبك لا بعينك؛ لتدرك إلى أي مدىً تحتاج إلى القرآن.

ولا تحسـبوا أننـي أبالـغ حيـن أقـول أن مظاهـر حاجـة الإنسـان للقرآن؛ أعظم من أن يحيط بها بيان إنسان، فهي أكثر من أن تُحصى، وأوسع من أن تُستَقصى.

لـذا سـنقتصر هنـا علـى محوريـن فـي غايـة الأهميـة؛ لطالمـا انشغلت البشرية بهما وبما يخصهما من تساؤلات.

وفي رأيي أن هذين المحورين يمثلان أهم حاجات الإنسان:

الأول منهما

هو حديث القرآن عن الرب الرحمن المنان
(حدثني عنك)

لأن الإنسان في حاجة عظيمة للتعرف على ربه والإيمان به.

والثاني

هو حديث القرآن عن الإنسان
(حدثني عني)

من حيث كونه إنسانا، بكل صفاته ومشكلاته، وعلاقاته.

أحسن الحديث

لقد تحدث الله عزوجل عن كلامه في القرآن في أكثر من موضع، وسَمَّاه (حديثاً). ويستفاد من ذلك الحديث عن (أشرف الحديث) الكثير من الحقائق الباهرة؛ لكننا سننشغل هنا بإبراز الأفضلية والمنهجية.

وأقصد بالأفضلية (السمات التي تَمَيَّز بها حديث اللّه عزوجل).

أما المنهجية فأقصد بها

(الأصول التي أوصى بها ربنا عزوجل فيما يتعلق بالتعامل مع الحديث وآليات الانتفاع التام به).

أولاً: الأفضلية

قال ربنا عن كلامه: ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]،
وقال عزوجل عن حديثه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]

فقد وصف اللّه تعالى حديثه هنا بعدةِ أوصاف، ومن جملةِ تلك الآيات، سنقف لحديث ربنا على جملةٍ من الصفات والسمات:

(١) أنه الأعلى قدراً والأجَل أثراً

لأنه نازلٌ إلينا من عند الرب العلي الأعلى المتعال،

- العلي في ذاته وفي صفاته
- العلي مكانةً وقدراً
- وهيمنةً وقهراً (إخضاعاً).

فكيف سيكون حديث ربٍ له وحده هذا العلو الفريد؟! ﴿نَزَّلَ﴾

(٢) أنه الأحسن

والأحسن هنا تشير إلى الكمال، والجمال، والجلال

فهو أحسن الحديث في ذاته، وأحسنه في صفاته، وأحسنه في مآلاته ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

(٣) أنه قد جاء في كتاب

قد جمع وضم كل ما يحتاج إليه الإنسان؛ ولم يُفَرِّط في شيء أو يهمله، ويشير كونه كتاباً إلى كونه محفوظاً وإلى كونه قريباً في متناول العباد ﴿كِتَابًا﴾.

(٤) أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن

فلا تجده ينزل أبداً عن وصف (الأحسن)، لا في أوله ولا في آخره، ولا في وعده ولا في وعيده، ولا في أخباره ولا في أحكامه ﴿مُتَشَابِهًا﴾.

(٥) أنه قد جاء على أنسب وأنفع صورة للإنسان

تكافح ما يعتريه من الغفلة والنسيان؛ فتُدعَّم فيه المعاني بصور مختلفة في مواضع مختلفة، وتُوَضَّح فيه المعاني بذكر الشيء ونقيضه أو شبيهه، وتتنوع فيه أساليب العرض ﴿مَثَانِيَ﴾.

(٦) أنه لا يخاطب العقل فقط

الترغيب

تفاؤل ورجاء

الترهيب

نافع

دافع

رافع

وإنما يؤثر في القلب والوجدان أثراً يظهر على الجسد؛
وأثره في غاية التوازن،
الترهيب فيه ليس للترعيب، وإنما للإنذار والتهذيب،
وليس للتفزيع والترويع، وإنما للتنبيه والتشجيع
إنه باختصار (ترهيب نافع دافع رافع)،
أما **الترغيب** فإنه ليس من ذاك الذي يثمر التواكل والإرجاء،
بل من النوع الذي يثمر التفاؤل والرجاء.

إنه باختصار: خطاب يراعي كل المحركات والدوافع البشرية،
كالشوق والمحبة، والرجاء والرغبة، والخوف والرهبة
﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله﴾.

(٧) أنه الهدى الأوحد لجميع الخلق

والمؤمنون به أسعد الناس بتلك الهداية؛ يهديهم معرفةً وإرشاداً،
ويهديهم توفيقاً وسداداً،
ويهديهم استقامةً وثباتاً.
﴿ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾،
﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٨) أنه أصـدق حديثٍ وأكثره مطابقةً للحقيقة

فلا كذب ولا افتراء ولا مبالغة، ولا تهويل ولا تهوين.
أكثره أماناً في أخباره وأحكامه، فليس فيه أوهاماً تضلل متابعيه، وليس فيه مفاسد تُشقي مطالعيه.
وأكثره اتساقاً وتطابقاً في جميع أجزائه فلا اختلاف فيه ولا تناقض، ولا يكذب أوله آخره أو آخره أوله
﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾

الأكثر أمانا

الأكثر اتساقا

(٩) أنه متوافق مع الفطرة السـليمة، والعقول المسـتقيمة، والكتب الحكيمة، والحقائق القويمة.

فلا تجد فيه شيئاً من الكذب والافتراء، أو الإفراط والاجتراء أو التفريط والاجتزاء
﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

(١٠) أنه تفصيل لكل ما يحتاج إليه الإنسان

وتقريب له في أنسب صورة وأيسر بيان،
وفي أشمل وأوضح طريقة وبرهان
﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

(١١) أنه رحمة من اللّه بعباده

يتجلى من خلاله تمام الحنان ترفقاً، وتمام الإحسان تفضلاً فالمؤمنون بهذا الحديث (علماً وعملاً) هم أوفر الناس حظاً من الحنان والإحسان، وأبعد الناس عن الشقاء والحرمان، وأكثرهم أماناً من المخاوف والأحزان؛ لأن ذلك الحديث يقدم للإنسان
هداية شاملة كاملة في
أحسن وأصدق وأنسب وأيسر وأوضح صورة
﴿وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.
وصدق ربنا إذ أخبر أن حديثه ليس كمثله حديث؛
فقال سبحانه متحدياً:
﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

ولقد أدرك رسولنا الحبيب ﷺ قَدْر حديث الله وعظمته وفضله فاستفرغ وسعه في حض الناس على الإيمان به، واهتم بذلك كثيراً حتى كاد الهم والغم يهلكه؛ فعاتبه ربنا فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]

سبحان اللّه!

- كيف يعرف الإنسان كل ذلك عن حديث الله ثم يؤثر عليه حديثاً غيره؟!
- كيف يهمل حديث الله وهو أحوج ما يكون إليه؟!

وللأسف الشديد فإن بعض الناس بَدَلَ أن يعتني بحديث الله إيماناً وتعظيماً تجده يؤثر غيره عليه، وينفق من ماله ووقته وجهده فيه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦، ٧].

اكتشاف

وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الجاثية: ٦ - ٩].

فنعوذ بالله من حال ومآل أولئك الظالمين الغافلين المستكبرين.

وقد كان هدفنا من الحديث عن (الأفضلية)

١ إبراز [الأهمية]

٢ وتوليد [الدافعية]

- لتقدير حديث ربنا حق قدره،
- والعناية به وتقديمه على غيره.

ثانياً: المنهجية

لقد جاء الحديث عن منهجية التعامل مع (حديث الله) مبثوثاً في كتاب الله؛ فتارةً يكون بالتصريح، وتارةً يكون بالتلميح، وسنحاول أن نبرز أمثل آليات التعامل مع (حديث الله) بصورة عملية مرتبة يسهل تطبيقها.

تصريحا

وتلميحا

(١) التفقه فيه

وذلك التفقه يستلزم الفهم، ويقتضي التفكر والعزم؛

لأن الله قد أنكر على بعض خلقه عدم تفقههم في حديثه؛ فقال تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

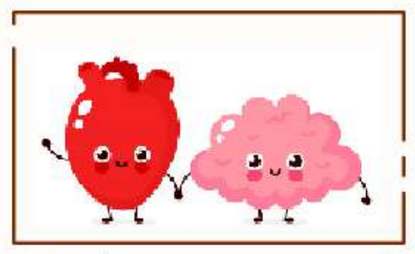

(٢) التفكر فيه وتدبره

لأن الله قد أنكر على بعض خلقه التعجب من حديثه استبعاداً وإنكاراً، والضحك استهزاءً وافتخاراً، وترك التفكر في حديثه وتدبره لهواً واستكباراً؛ فقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١].

وقد أنكر الله على الذين لا يؤمنون بحديثه؛ إهمالهم للتفكر والنظر في المسطور والمنظور من الأقوال والأحوال.

[1] قال الطبري في تفسيره (٢٢/٥٥٨): "(وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ) ... وأنتم لاهون عما فيه من العِبر والذكر، معرضون عن آياته"، وقال السعدي في تفسيره (ص: ٨٢٣): "غافلون عنه، لاهون عن تدبره"

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٤، ١٨٥]

قلبي

قولي

عملي

(٣) الإيمـان بـه؛ وأكمل الإيمان بحديث ربنا يستلزم التصديق القلبي يقيناً وتعظيماً، والتصديق القولي إقراراً وثناءً، والتصديق العملي شكراً واتباعاً.

فقد أنكر الله على بعض خلقه **إهمالهم الإيمان بحديثه**

فقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وقد أنكر الله على الذين **يكذبون بحديثه** سبحانه، فقال تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١، ٨٢].

وليس هذا فحسب، بل توعدهم؛ فقال تعالى:

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وإذا أردنا إجمال ما فَصَّلناه، نقول:

لقد أوصانا ربنا إذا أردنا كمال الانتفاع بحديثه سبحانه (سواءً كان عن نفسه، أو عن أنفسنا نحن، أو عن غير ذلك)،

أن نؤمن بهذا الحديث تفهما وتدبراً واتباعاً،

وأن نجتنب ما تسبب في الهلاك لغيرنا من صور التعامل الفاسدة مع حديث الله؛

كالتكذيب القلبي ﴿تعجبون﴾،

والقولي والعملي ﴿مدهنون[1]﴾ ، ﴿تكذبون﴾، ﴿تضحكون﴾،

وترك التفكر والتدبر ﴿سامدون﴾، وترك التفقه ﴿لا يفقهون﴾.

[1] قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣٣٨/٢٧): "وَالْمُدْهِنُ: الَّذِي يُظْهِرُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ ... وَفُسِّرَ أَيْضًا بِالتَّهَاوُنِ وَعَدَمِ الْأَخْذِ بِالْحَزْمِ، وَفُسِّرَ بِالتَّكْذِيبِ ... وَعَلَى تَفْسِيرِ مُدْهِنُونَ بِمَعْنَى الْإِلَانَةِ، فَالْمَعْنَى: لَا تَتَرَاخَوْا فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَتَدَبَّرُوهُ وَخُذُوا بِالْفَوْرِ فِي اتِّبَاعِهِ".

المحطة الأولى: حَدِّثْنِي عَنك

حديث القرآن عن الرحمن

(١) المعرفة التالفة.

(٢) رحلة استكشافية.

(٣) أول الواجبات وأهم المهمات.

(٤) أشرف وأعظم المعارف والعلوم.

(٥) ختمة محبة.

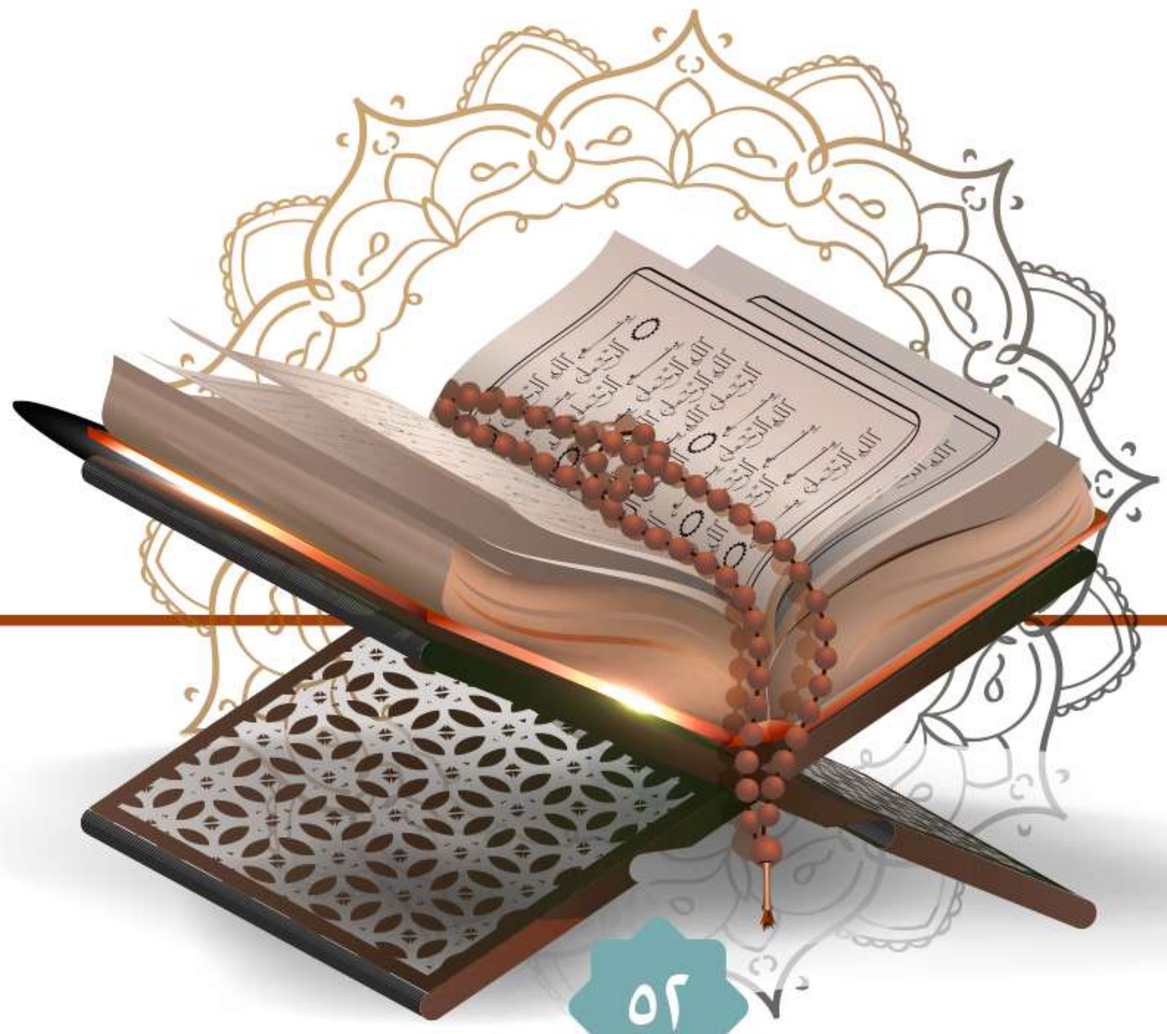

إلهي! يا خالقي!

حَدِّثْنِي عنك، فليس هناك أحدٌ أعلم بك منك.

حَدِّثْنِي عنك، فليس هناك أحد أقدر على التأثير فِيَّ منك.

حَدِّثْنِي عنك، فذاك أكثر ما يقربني منك.

رباه! يا رازقي!

حَدِّثْنِي عنك، فلا حديث أحب إليّ مِن الحديث عنك.

حَدِّثْنِي عنك، فليس شيء آثر لديّ مِن السماع عنك.

حَدِّثْنِي عنك، فليس شيء يُسْكِن روحي كحديثك عنك.

مولاي وغاية أملي!

حَدِّثْنِي عنك، فقد اشتد شوقي إليك.

حَدِّثْنِي عنك، فأنا أحوج ما أكون إليك.

حَدِّثْنِي عنك، فأنا بك وإليك.

حَدِّثْنِي عنك، فلا حول ولا قوة لي إلا بك.

سيدي، ومنتهى سؤلي!

حَدِّثْنِي عنك، لتسكن روحي، وتندمل جروحي.

- حَدِّثْنِي عنك، لتعلو أفراحي، وتزول همومي وأتراحي.
- حَدِّثْنِي عنك، لأستعذب في سبيلك العذاب، وأتخطى كل الصعاب، وأطرق كل الأبواب، وآخذ بكل الأسباب؛ لتكتبني عندك من الأحباب.

حبيبي، وقرة عيني!

- حَدِّثْنِي عن وحدانيتك، حَدِّثْنِي عن ألوهيتك، حَدِّثْنِي عن ربوبيتك.
- حَدِّثْنِي عن رحمتك؛ حَدِّثْنِي عن قيوميتك، حَدِّثْنِي عن عظمتك.
- حَدِّثْنِي عن مخلوقاتك، حَدِّثْنِي عن مُلْكك، حَدِّثْنِي عن عِلْمك.
- حَدِّثْنِي عنك؛ لأقدرك حق قدرك، وأستقيم على طاعتك وأمرك.
- حَدِّثْنِي عنك؛ لأحدث غيري عنك، وأرد إليك بعضَ ذرة من حقك.

وما أجمل قول القائل!

عذابي فيك عــذب وبعدي فيك قرب

وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحب

حسبي من الحب أني لـما تحب أحـب

أحب ربي جدا جدا جدا

وأشتاق إليه،

هذا أكثر شيء أنا متيقن أني صادق فيه،

وأرجو أن يشفع لي ذلك بين يديه،

أسعد لحظات حياتي هي التي أسمع أو أقرأ

عن ربي وحبيبي والشوق إليه.

لقد اشتقت إليه حقا،

وأرَّقني حنيني صدقا.

(١) المعرفة التالفة

لطالما أشغلني أَمْرُ التعرف على ربي الذي أَتَوَجَّهُ إليه وأَعْبُدُه، وَأَشْكُرُهُ وَأُوَحِّدُه، وكانت لدي تصوراتي الخاصة عن ربي ﷻ لكنها كانت معظمها من وحي بعض الانطباعات، أو حصادا لبعض التخرصات.

ولذلك – بصراحة – لم يكن حاضراً في حياتي أو حتى في عباراتي، وكانت العلاقة التي تربطني به

علاقة طقوسية، أبعد ما تكون عن العبودية

- شوقاً ومحبة
- ورجاءً ورغبة
- وخوفاً ورهبة

ولما بدأتُ أستفيق من غفلتي، وأتعلم ديني وعقيدتي، تنامى لدي ذلك الشعور بحضور الله ﷻ في حياتي وفي عباراتي، لكن ذلك الحضور لم يقدح بَعدُ زناد الخشية التي تليق بالله، ولم يُفَجِّر أنهار الرجاء الذي يحبه الله ويرضاه،ولم يبعث من أشواق المحبة ما أصبو إليه وأتمناه.

فقد كان انشغالي بمعالم الطريق وضوابطه أكثر من انشغالي بالطريق، بل حجبني عن الانشغال بالطريق، وأقعدني عن سلوكه.

فقد استنزفت معظم طاقاتي وأوقاتي

في ضوابط الإيمان بأسماء الله،

والتعرف على مسالك الضلال وأفعال الجُهَّال.

وكان المُتَوَقَّع أن أدلف بعدها مباشرة للتعرف التفصيلي على أسماء ربي وتعلمها كما ينبغي.

لكن الذي كان يُقَال لي - بلسان الحال قبل لسان المقال -

"هذا الجزء قراءة (يقصدون: التعرف التفصيلي على الأسماء الحسنى)، انتقل سريعاً إلى ضوابط الباب الذي بعده".

ومع الوقت بدأت أحَسَب أن الإيمان بأسماء الله هو مجرد معرفة هذه الضوابط والمنارات، وفهمها، وحفظها، وتعليمها للغير.

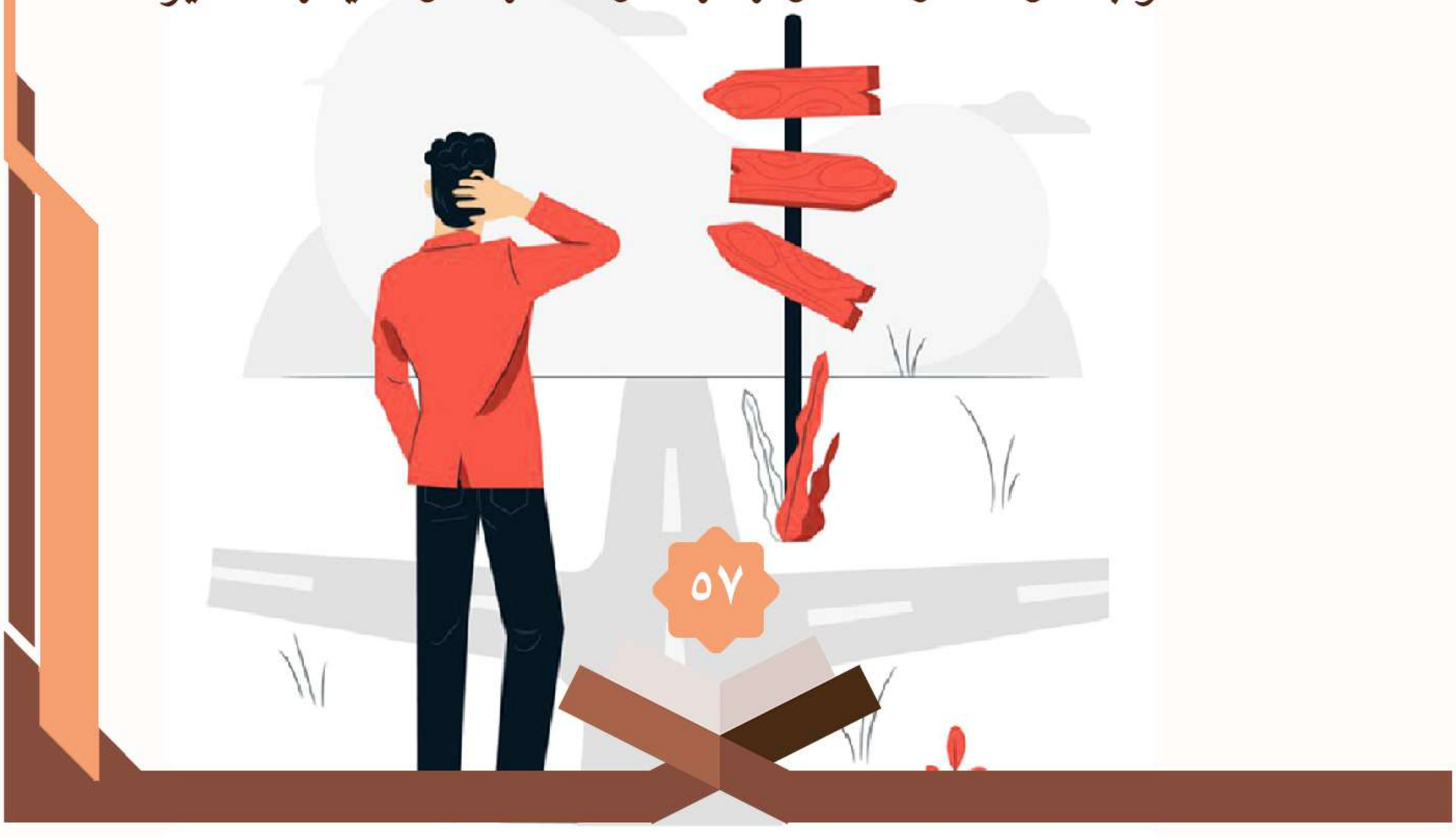

اكتشـاف

ومن العجيب والغريب أن واقعنا في التعامل مع أسماء الله وصفاته، يشهد أن ما كنا ننكره بلسان المقال، كنا نباشره بلسان الحال.

فقد كُنا مثلاً: نؤكد على فساد مسلك طائفة الجهمية الذين كانوا يزعمون أن الإيمان هو (المعرفة فقط)،

ونؤكد على فساد مسلك طائفة المرجئة الذين كانوا يزعمون أن الإيمان هو (تصديق القلب فقط)،

ونؤكد أن منهج النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن الإيمان (معرفة وتصديق وعمل)، وأن الإيمان بالشيء لا ينبغي أن يقف عند ما وقفت عنده الجهمية والمرجئة.

لكننا بلسان الحال كنا نتناول مسألة الإيمان عملياً تَنَاولَ الجهمية أو المرجئة.

فيقرأ أو يتعلم الواحد منا مسائل الإيمان ويتعرف عليها ويحفظها من خلال كتاب ما أو شيخٍ ما.

ولربما كانت بعض تلك المسائل لم تنل حظها الكافي من التصديق واليقين في قلبه، لكنه يعرفها ويحفظها جيداً. وينتقل من مسألة لمسألة ومن كتاب لكتاب غير مكترث (معرفةً أو اتباعاً) بالعمل الذي يترتب على ما عرفه وصَدَّقه.

كُنا نُحَذِّر من مسلك أهل الكلام والفلسفة المنشغلين بأقوال الرجال عن الوحي من كتاب وسنة، لكن نجد أنفسنا في الواقع العملي ننشغل بكلام العلماء ومنظوماتهم حفظاً وتفهماً أكثر من انشغالنا بالآيات والأحاديث.

وبدلاً من أن تكون إنتاجات البشر (خادمة) أضحت (مخدومة)، ولم تعد نصوص الوحي للاستقلال، وإنما للتدليل على صحة أقوال الرجال.

ولازلتُ أذكرُ أن بعض الطلاب كان يضج ببعض الكتب التي كان أصحابها يكثرون من عرض النصوص تحت عنوان من العناوين، وينادي باختصارها.

اكتشـاف

ولقد وصل الأمر بالبعض لتحفيظ أطفال في سن الخامسة أو السادسة منظومات في الإيمان والاعتقاد، دون أدنى اكتراث بتفهيمهم معنى ما يحفظونهم إياه، وكأن الإيمان بالشيء في واقعهم قد أصبح (حفظ الألفاظ).

وكنتُ أقول: فإن أبيتم إلا التحفيظ فقط، فليكن المحفوظ من كلام الله فيما يخص الإيمان لا من كلام البشر.

ولا يفهمن أحدٌ من كلامي التقليل من شأن تلك الضوابط والمنارات والمجهودات؛ فإنني أراها ضرورة؛ لكنني أعترض على تضخيمها، والاستغراق فيها، والاقتصار عليها، وإهمال ما وُضِعَت لأجله هذه الضوابط، ألا وهو التعرف التفصيلي على الله من خلال وحيه الشريف.

الأمر أشبه بإنسان أراد أن يسافر من مكة إلى المدينة، فشرع في التعرف على أصناف المسافرين، والمزالق التي قد يتعرض لها، والحُفَر التي قد يقع فيها، والآفات التي قد تقطع عليه سفره وتفسده.

ثم بعد أن أتم التعرف على ذلك، بدلاً من أن يشرع في السفر مرحلة بعد مرحلة متزوداً بما يحتاج إليه، انتقل إلى معرفة المزالق والحُفَرَ والآفات المتعلقة بالطريق من المدينة إلى القدس، ولم يَزَلْ يتنقل بين تلك المعلومات حتى مات، وما سلك طريقاً واحداً مما تناولته تلك المعلومات.

لذا فإننا بحاجة للتعرف على اللّه بطريقة الوحي، من خلاله كلامه سبحانه عن نفسه.

لأنه خطاب يتصف بالأمان والاتزان، فليس هناك مصدر أكثر أماناً وموثوقية من الوحي، وليس هناك مصدر أكثر اتزاناً وتكاملاً علماً وعملاً منه.

(٢) رحلة استكشافية

في رأيي

أن أعظم ما يقدمه القرآن للإنسان هو تعريفه بالرحمن

فإن التعرف على الكريم المنان سبحانه هو أهم وأعظم حاجات الإنسان على الإطلاق، ولو لم يقدم القرآن للإنسان إلا ذلك لكفاه.

ولو أردنا أن نصف القرآن في جملة واحدة باختصار، فإنه

"حديث الله تعالى عن نفسه"،

إما بطريقة مباشرة أو بطريقةٍ غير مباشرة،

فاللّه عزوجل هو "أعظم مذكور في القرآن"،

والحديث عن اللّه هو (موضوع القرآن الأول).

قال ابن القيم: "الرب تَعَالَى يَدْعُو عباده فِي الْقُرْآن إِلَى مَعْرفَته من طَرِيقين: أَحدهمَا؛ النّظر فِي مفعولاته.

وَالثَّانِي؛ التفكر فِي آيَاته، وتدبّرها.

فَتلك آيَاته المشهودة، وَهَذِه آيَاته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأوّل:

كَقَوْلِـه: ﴿إِنَّ فِـي خلـق السَّـمَوَات وَالْأَرْضِ وَاخْتِـلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ وَالْفُلْـكِ الَّتِي تَجْـرِي فِـي الْبَحْـرِ بِمَـا يَنْفَـعُ النَّـاسَ إِلَـى آخرهَـا وَقَولـه إِنَّ فِـي خلق السَّمَوَات وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَاب﴾

وَهُوَ كثير فِي الْقُرْآن.

وَالثَّانِي: كَقَوْلِه:

﴿أَفَلا يَتَدَبَّـرُونَ الْقُرْآن﴾، وَقَولـه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْل﴾، وَقَوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاته﴾

وَهُوَ كثير أَيْضا.

فأمّا المفعولات فَإِنَّهَا دالّة على الْأَفْعَال، وَالْأَفْعَال دالّة على الصِّفَات، فَإِن الْمَفْعُول يدل على فَاعل فعله، وَذَلِكَ يسْتَلْزم وجـوده وَقدرتـه ومشـيئته وَعلمـه ... فالمصنوعـات شـاهدة تصدق الْآيَات المسموعات"[1]

(1) الفوائد لابن القيم (ص: ٢٠)

إن رحلة استكشافية قصيرة؛

داخل صفحات التشريع المسطورة.

وأخرى داخل صفحات الكون المنظورة.

وثالثة داخل صفحات التاريخ المأثورة.

كفيلة بأن تنير البصائر، وتوقف العبد على حقيقة المصائر.

فيرى من قوة ربه وقدرته، ومن ضعف عدوه وقلة حيلته.

مالا يترك له مجالا لأن يخاف، أو يتسلل إلى قلبه نذر يسير من الإرجاف.

فيضع الأمور في نصابها، ويتخلص من المخاوف وأوصابها.

فيتحرر من أسره، ويتخلص من وزره. فيولد ميلادا جديدا، ويحيا في رحاب التوكل والإيمان سعيدا.

ومتى ما داومت على تلك الرحلات الاستكشافية اليومية، في الرياض الإيمانية.

فأبشر بالسعادة والأمان، والفلاح والاطمئنان.

والرائع! أن رحلة قصيرة في رياض القرآن، **تقوم مقام الرحلات الثلاث**؛ لأن تلك الرحلات الثلاث، تفنى فيها الأعمار.

لكن الرحلة التي تؤتي ثمرتها، وتحقق غايتها، تلك الرحلات الاستكشافية، للحقائق التدبرية.

فَكَمْ مِن مُرتحل مَرَّ على كنوز الآيات، وذخائر العبارات والهدايات، لكن رحلته لما كانت شكلية، ومهمته لما كانت سطحية، ما انتبه لتلك الذخائر، وفاتته تلك الدرر والجواهر!!!

فعليكم بتدبر القرآن، تنعموا بالأمن والأمان، والسكينة والاطمئنان.

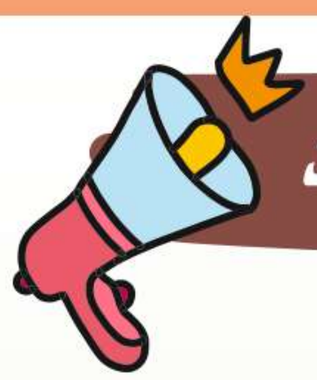

(٣) أول الواجبات وأهم المهمات

وهـذا اللـون مـن التعـرف المثمر على الله هـو أول الواجبات وأهم المهمـات؛ لأن النبي ﷺ لمـا أرسـل معـاذاً رضي الله عنه إلـى اليمن أوصاه بأن يبدأ معهم بتعريفهم بالله؛ فقال:

"إِنَّكَ تَقْدمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا عَرَفُوا الله..."[١]

ورغـم أن أهـل اليمـن (أهـل كتـاب) والمفتـرض أنهـم لديهـم معرفة بالله، لكنها ليست المعرفة التي تنبغي.

قـال القاضـي عيـاض: "هـذا يـدل على أنهـم غيرُ عارفين بـالله تعالى ... وإن كانـوا يعبدونـه ويظهـرون معرِفتـه ... فمعبودهـم الـذى عبـدوه ليـس بـالله، وإن سـموه بـه؛ إذ ليـس موصوفـاً بصفـات الإلـه الواجبة له، فإذن ما عرفوا الله ولا عبدوه"[٢]

١ متفق عليه.
٢ إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢٣٩/١)

ووالله الذي لا إله إلا هو ما قَصَّرنا في حق الله،

إلا لأننا ما عرفناه،

لا أُنكر أن لدينا قدرٌ من المعرفة بالله،

لكنه ليس القدر الذي ينبغي كماً

وكيفاً، ليس القدر الذي ينفع ويرفع ويدفع.

فكل من وقع في شباك الشبهات

فَضَلَّ في باب الأسماء والصفات، إنما زلت قدمه؛وزاغ فهمه،

لأنه لم يقدر الله حق قدره.

وكل من سقط صريعا للشهوات

فقارف المعاصي والمنكرات، إنما غوى، واتبع الهوى؛

لأنه لم يقدر الله حق قدره.

فنحن نعرف الله لكنها معرفة قاصرة، لا تدفعنا إلى الطاعات ولا تحجزنا عن المخالفات، فإننا فعلاً ما قصرنا في حق الله

إلا لأننا جهلنا قدره وما عرفناه على الحقيقة.

وإلا فَربٌّ كربنا كيف يُعصَى أو يُنْسَى،

وقد حاز غاية الكمال والجمال والجلال في كل أسمائه وصفاته؟

(٤) أشرف وأعظم المعارف والعلوم

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/١٦٤):

"شرف الْعلم تَابع لشرف معلومه ...

وَلَا ريب أن أجل مَعْلُوم وأعظمه وأكبره فَهُوَ الله ...

وَلَا ريب أن الْعلم بِهِ وبأسمائه وَصِفَاته وأفعاله أجل الْعُلُوم وأفضلها

... وكل علم فَهُوَ تَابع للْعلم بِهِ مفتقر فِي تحقق ذَاته إليه ...

فَمن عرف الله، عرف مَا سواهُ، وَمن جهل ربه، فَهُوَ لما سواهُ أجهل ... وَالْمَقْصُود أن الْعلم بِالله أصل كل علم، وَهُوَ أصل علم العَبْد بسعادته، وكماله، ومصالح دُنْيَاهُ وآخرته، وَالْجهل بِهِ مُسْتَلْزم للْجَهْل بِنَفسِهِ، ومصالحها، وكمالها، وَمَا تزكو بِهِ وتفلح بِهِ، فالعلم بِهِ سَعَادَة العَبْد، وَالْجهل بِهِ أصل شقاوته"

وقال في عدة الصابرين (ص: ٩٣) عن تفاوت العلوم:

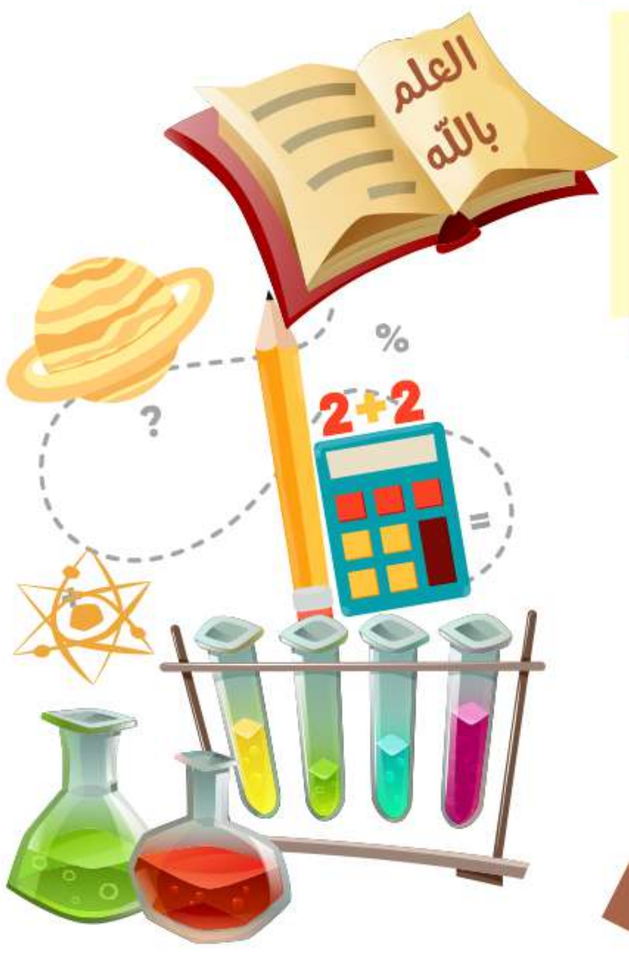

"فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته، فهو أعلى مما دونه"

ومن الأمور التي استوقفتني جدا في القرآن أن الله عزوجل كلما **طالبنا** بأن نعلم، أو **عاتبنا** على أننا لم نعلم، يكون المعلوم الذي يتحدث عنه سبحانه في معظم المواطن هو

(ما يتعلق مباشرة بأسمائه وأوصافه ﷻ)

فمن أمثلة التحضيض والمطالبة قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

ومن أمثلة التقرير والمعاتبة قوله تعالى:

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧].

وكأنها رسالة ضمنية واضحة إلى أن أهم علمٍ على الإطلاق هو (العلم به سبحانه)، وأن أهم ما ينبغي البدء بتعلمه هو أسماؤه سبحانه وصفاته، وأن العلم بأسمائه وصفاته هو أحق ما يطلق عليه لفظ (علم).

كما يشـير ذلك إلى مسـألةٍ منهجيةٍ في التعامل مع أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

تلك المسألة تقرر أن العلاقة بأسماء الله وصفاته هي (علاقة علم)،
وليست علاقة عاطفة بلا معرفة،
أو معرفة سطحية بلا تعمق ومكاشفة..
بل علاقة علمية منهجية مكتملة الأركان،
بكل ما تستلزمه من
تحصيل وتأصيل وتفصيل وتحليل وتعليل وتنزيل وتفعيل،
علاقة علمٍ بكل ما يسبقه من معرفة وفهم، وبكل ما يتضمنه من يقين وعزم، وبكل ما يلحقه من عمل وثبات

علاقة علم بكل ما يستلزمه وما يسبقه

لكن ما هو (العلم) المقصود هنا؟

إنَّ الشريعة تؤكد أنه لا ينبغي أن يكون هناك
(علم بلا عمل)،
وليس في الشريعة (علمٌ لمجرد العلم)، أو (عمل بلا علم).

مثال يتضح به المقال:

وسنأخذ الآن مثالاً على (العلم بالله) المطلوب في الآيات؛

وهو قوله تعالى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

فما معنى {اعلم} التي طلبها اللّه عزوجل منا هنا؟

ففي تفسير كلمة {اعلم}؛ تكلم المفسرون بكلام لا يتعارض، وإنما يتكامل ويتعاضد؛ ليشير إلى الصورة المتكاملة للعلم المطلوب هنا.

حيث يرى معظم المفسرين أن معناها (اعمل)[1].

ويرى بعض المفسرين أن معناها (تَيَقَّن)[2].

ويرى البعض الآخر أن معناها (اثبت)[3]

[1] انظر: التفسير البسيط (٢٠/ ٢٤٥)، نظم الدرر (١٨/ ٢٣٠)، تفسير السعدي (ص: ٧٨٧)، التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٥)

[2] انظر: تفسير السعدي (ص: ٧٨٧)

[3] انظر: تفسير الرازي (٢٨/ ٥٢)، إرشاد العقل السليم (٨/ ٩٧)، الوسيط لطنطاوي (١٣/ ٢٣٥)

(٥) ختمة محبة

لذا فإننا بحاجة إلى ما نطلق عليه (ختمة محبة)

والتي تهدف إلى

مطالعــة معاني القرآن من أوله إلى آخره بقصد (التعــرف على الله والعلــم به تعالى من خلال كلامه سبحانه عن نفسه).

فـإن الإنسـان كلمـا زادت معرفتـه بـالله تعالى، زاد حبه له وتقديره له حق قدره، فقـد بلـغ اليقيـن ببعـض مَـن عـرف الله حقـاً لأن يقول:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع

في واقعنا لو قرأ الإنسان (لكاتب) ما كتاباً، وكان ذلك الكتاب يشـتمل علـى أفـكار نَيِّرة ومعلومـات مُبْهـرة؛ فـإن تقديـره لذلـك الكاتب ينمو في قلبه، ويشعر بنوع من الألفة والمحبة له.

فإذا قرأ أكثر، ازداد التقدير أكثر، وازدادت المحبة أكثر، حتى إنه ليكون شغوفاً بكل ما ينتجه ذلك الكاتب.

فإذا قرأ (السيرة الذاتية لذلك الكاتب والتي كتبها بنفسه) ووجدها منطلقةً من كتاباته ومتوافقة معها، ازداد التقدير لدرجة كبيرة جداً، وتمكنت المحبة من قلب ذلك القارىء حتى إنها لتحمله على الحديث الدائم عن ذلك الكاتب، ونشر أفكاره ونصرتها، وخدمة إنتاجه العلمي، رغم أنه لم يره. وتكون مقابلة ذلك الكاتب ومجالسته أو صحبته من أعظم أماني ذلك القارىء.

لكننا - للأسف - لا نجد عند بعض المسلمين ذلك التقدير، وتلك المحبة، لربنا العلي العظيم سبحانه وبحمده، حتى إن البعض منهم ليستحق أن يدخل في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾ [البقرة: ١٦٥]

فقد أنكر الله في تلك الآية على مَن يحب أحداً من المخلوقين (مثل) محبته لله سبحانه وبحمده، فكيف بمَن يحب أحداً (أكثر) من الله؟!

فما السبب؟

في رأيي أنهم لم يتعرفوا على الله كما ينبغي، واكتفوا بالصورة النمطية التي يُصَدِّرُها لهم الأهل أو الأصحاب أو المجتمع أو حتى بعض الشيوخ، والتي في غالب الأحيان تكون (مُشوَّهةً للغاية)،

فيشعر الواحد منهم وكأن الله بينه وبينه ثأر شخصي، ولا يكاد يسمع عنه إلا أنه سيعاقب وسيعاتب وسيعذب وسينتقم.

حتى إن بعض الشباب لما يسمع الواحد منهم مثلاً أن الله (غفور ودود) أو أنه (كريم حليم) لا يكاد يُصَدِّق.

والسبب أنهم أهملوا المصدر الأكثر (أماناً واتزاناً) في التعريف بالله، وهو كلامه سبحانه وبحمده.

لأنهم لا يقرأونه ولا يسمعونه،

وإن قرأوا أو سمعوا فإنهم لا يفهمونه،

وإن فهموا فإنهم لا يتفكرون ولا يتأملون ولا يتدبرون.

والأعجب أن تجد بعضهم كل علاقته بالقرآن أنه يضبط ألفاظه تجويداً، أو يجمعها حفظاً؛ لكنه لا يعرف معنى ما يضبط ويحفظ.

أَنَّى لهؤلاء أن يعرفوا الله أو يحبوه أو يقدروه حق قدره، وهم لم يفهموا ولم يتفكروا في آياته؟

آياته التي يحدثنا فيه عن رحمته وكرمه ومنته، وفضله وإحسانه ورأفته، وحلمه وإنعامه وقيوميته، وحفظه وكفايته وربوبيته، وعفوه وغفرانه ومودته، وعلمه وحكمته وخبرته، وملكه وغناه وقدوسيته، وخلقه وعلوه وعظمته، وقوته وقدرته وعزته؟

طالعوا (القرآن)؛ لتعرفوا كيف يتحدث الله سبحانه عن نفسه؟ وكيف يريد لعباده أن يعرفوه؟

طالعوا (السُّنَّة)؛ لتعرفوا كيف يتحدث ﷺ عن ربنا؟ وكيف يعرفنا به؟

المحطة الثانية: حَدِّثْنِي عَنِّي

حديث القرآن عن صفات الإنسان

أولاً: لماذا الاقتصار على القرآن؟

(١) المعرفة التالفة.

(٢) رحلة استكشافية.

(٣) أول الواجبات وأهم المهمات.

(٤) أشرف وأعظم المعارف والعلوم.

(٥) ختمة محبة.

ثانيا: ما هي أبرز صفات الإنسان في القرآن؟

إلهي! حَدِّثني عني

فليس أحد أعلم بي منك، وليس أحد ألطف في علمه بي منك، وليس أحد أوسع علماً بي منك، وليس أحد أكثر خبرة بي منك، وليس أحدٌ أكثر إحاطة بي منك، وليس أحدٌ أحكم في علمه بي منك.

لذا لا أريد أن أسمع عني إلا منك

لأنك تعلم عني ما لا أعلمه عن نفسي، وشهدت مني ما لم أشهده في أمسي، وأنتَ تُحْصي ما لا أُحصي.

حَدِّثني يارب عن نفسي،

حدثني عنها فأنت الذي خلقتها، وأنت الذي أنشأتها من الأرض، وأنت الوحيد الذي لديك قصتها كاملة، بل إنني شخصياً غابت عني الكثير من فصول قصة حياتي، فكيف بغيري من البشر؟!

ألستَ تقول:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]؟

حَدِّثني عن نفسي، فأنت تريد الخير لها أكثر مما أريد أنا، وتعلم ما يضرها أكثر مما أعلم أنا.

اكتشـاف

لا تستطيع نفسي أن تخدعك في تقييمها وتقويمها، لكنها تخدعني أنا، بل وتظاهر غيري على تخديري والتغرير بي.

أنتَ ياربُ سبحانك ملاذي الوحيد

أنتَ وحدك الذي تملك التقويم والتسديد، أنتَ وحدك الذي تملك تيسير سلوك الطريق الرشيد

{مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الكهف: ١٧]،

{أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} [الزمر: ٣٦، ٣٧].

فما رأيكم أن نتعرف على أنفسنا ممن خلقها؟

ما رأيكم أن نستمع لوصاياه فيما يتعلق بها؟

أنا عن نفسي أحوج ما أكون لذلك ولن أسلك غيره من المسالك لأنها ستفضي بي إلى الحيرة والمهالك.

فهل ترغبون في مشاركتي في **رحلة التعرف على النفس** من خلال حديث خالقها سبحانه عنها؟

أولاً: لماذا الاقتصار على القرآن في التعريف بالإنسان؟

(١) دوائر الابتلاءات

إذا تأملنا القرآن والسنة وجدنا أن الإنسان يتعرض لثلاثة دوائر من الاختبارات أو الابتلاءات، وهذه الدوائر تتفاوت في زمان وجودها وظهورها، بل يتفاوت الناس في نصيبهم منها.

الدائرة الأولى (الابتلاءات الأصلية)

ونقصد بها الابتلاءات التي ابتُلي بها الإنسانُ من حيث كونه إنساناً؛ ككونه جهولاً وهلوعا وجزوعاً ومنوعاً وغيرها من الابتلاءات التي تم اختبار الإنسان بوجودها لديه.

الدائرة الثانية (الابتلاءات الجينية)

ونقصد بها الابتلاءات التي اكتسبها الإنسان من جينات والده أو والدته أو عائلته أو قومه؛ كوجود استعداد للبخل أو الجبن عند بعض العائلات أو القبائل.

الدائرة الثالثة (الابتلاءات البيئية)

ونقصد بها الابتلاءات التي اكتسبها الإنسان من البيئة التي نشأ وترعرع فيها؛ كالكذب والخداع وغيرها.

ورغم كل تلك الابتلاءات فإن الله قد أخرج كل إنسان من بطن أمه ولديه نصيباً وافراً من الفطرة السليمة يستطيع من خلاله التخلص من كل تلك الابتلاءات، لو استعان بالله وقام بتفعيل مخزون الفطرة السليمة الذي لديه.

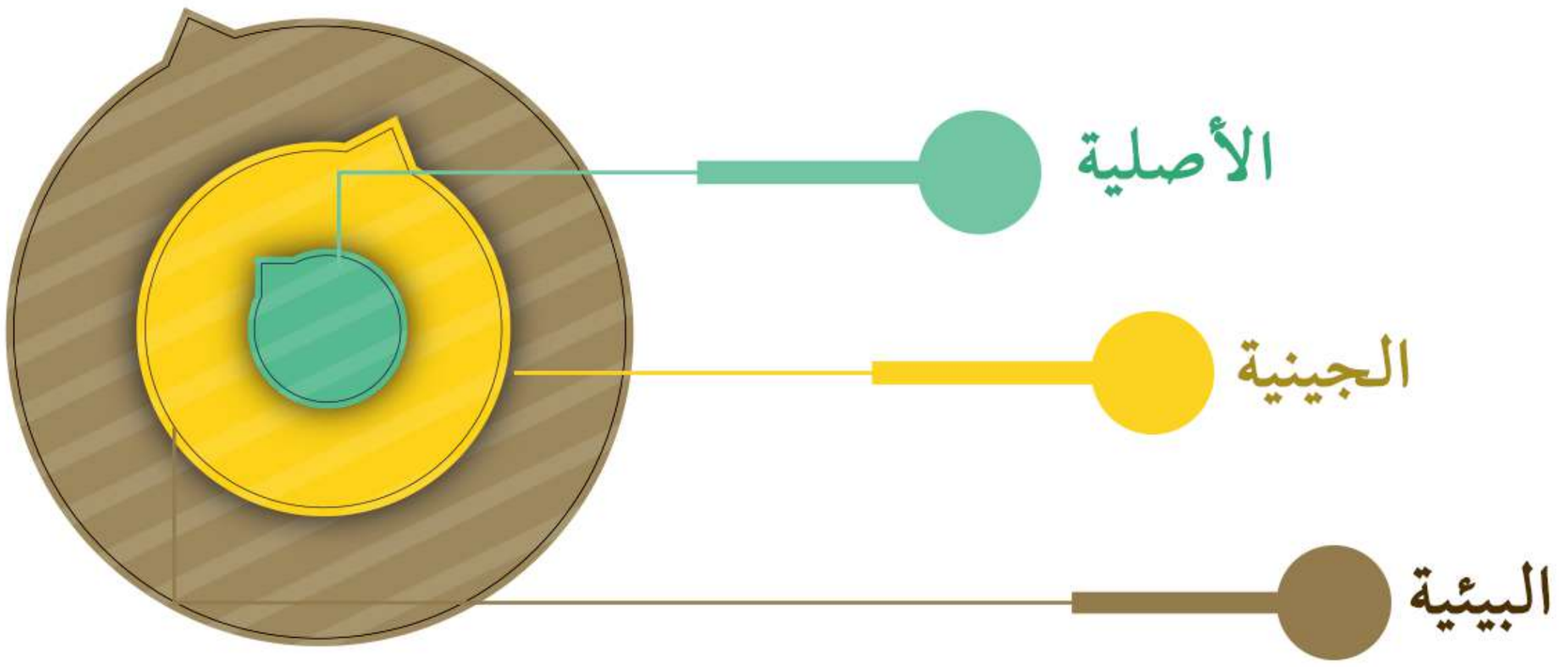

وإذا استقر لدينا ما سبق نجد أن الإنسان بحاجة إلى تخلية وتطهير من تلك الابتلاءات، وتنمية وتطوير لما لديه من مميزات.

فالتطوير وحده لا يكفي؛ لأن إهمال التطهير قد يتسبب في بقاء وترعرع بعض الآفات التي من شأنها أن تقضي على كل الجهود التطويرية.

والتطوير مطلوب كوسيلة من وسائل التطهير، وكصمام أمان للعصمة من العودة فريسة للآفات التي تطهر المرء منها.

وهذا المزيج المتوازن من التطهير والتطوير كان العرب يسمونه (التزكية)

فالتزكية عندهم **ليست مجرد تطهير بل إنها** [تطهير مع نماء أو تطوير]؛ **وليست مجرد نماء أو زيادة** بل [نماء يرتكز على حظٍ وافر من التطهير].

وإذا تمكن الإنسان من تحصيل القدر الذي يحتاجه من التزكية كان أكثر الناس فلاحاً في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى:

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} [الأعلى: ١٤]، وقال سبحانه:
{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}
[الشمس: ٧ - ١٠].

وليس هناك في دنيا الناس شيء يقدم للإنسان ذلك القدر المتوازن المتكامل من التطهير والتطوير إلا القرآن الكريم.

بل إن التزكية هي غاية وثمرة إنزال القرآن الكريم، وهي أهم معايير نجاح عملية التعليم القرآني.

يقول تعالى:

{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]

ولذلك كان من دعائه ﷺ:

"اللهـمَّ إِنِّـي أَعُـوذُ بِـكَ مِـنْ الْعَجْـزِ وَالْكَسَـلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْر، اللهمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا"[1]

[1] رواه مسلم: ٧٣ - (٢٧٢٢)، والترمذي (٣٥٧٢)، وأحمد (١٩٣٢٧)

(٢) أكثر شيء لا نعرفه

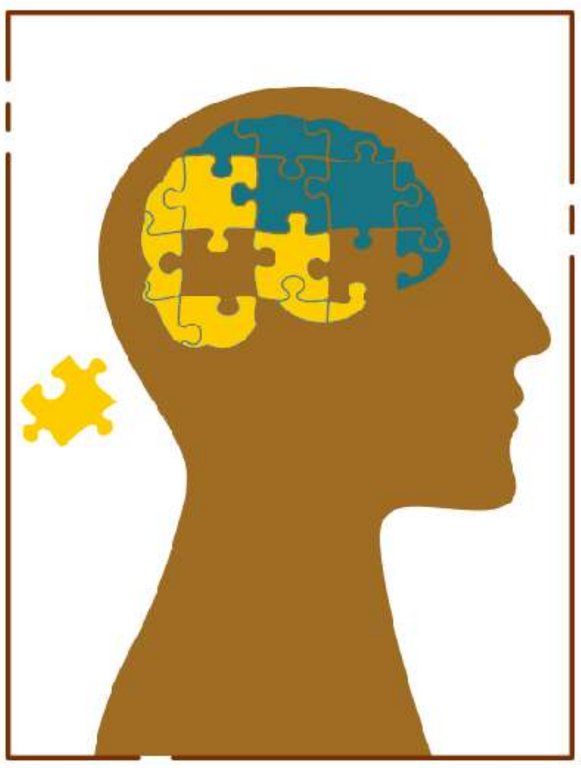

قُلتُ له: سأحدثك الآن عن أكثر شيء تظن أنك تعرفه، لكنه للأسف أكثر شيء لا تعرفه.

فتبسم وقال: ما هذه الألغاز؟ أي شيء ذاك الذي لا أعرفه، رغم أنني أزعم أنني أعرفه؟

فقُلتُ له: إنها نفسك يا صديقي؛ تظن أنها أكثر شيء تعرفه، رغم أنها في الحقيقة أكثر شيء لا تعرفه.

وليس أَدَلُّ على ذلك من أنك في أوقات كثيرة تريد فعل شيء لكنك لا تستطيع حمل نفسك على فعله، وتريد الإقلاع عن شيء لكنك تجد نفسك تفعله رغماً عنك، حتى أنك مع الوقت بدأت تقتنع أن نفسك خارج السيطرة، وأنها هي رئيسة جمهورية نفسها.

وكم مرةٍ كنت تزعم أنك قوي العزيمة!
ثم جاء موقف فأظهر لك أنك لست كذلك.

فحاولت التغرير بنفسك والزعم أنك قوي وسبب الإخفاق أنه كانت هناك ظروف هذه المرة.

ثم تكرر الموقف، وتكرر التغرير، وتكـــرر الموقف، وتكرر التغرير، حتى اضطررتَ آسفاً لإخضاع مفهوم قوة العزيمة للتغيير ثم اضطررت للاعتراف بأنك لستَ قوي العزيمة في الأخير.

هذا مثال واحد، وكلُ واحدٍ منا لديه أمثلته الخاصة على أمور كان يظن أنه يعرفها من نفسه ثم اكتشف أنه ما كان يعرف نفسه.

ولا عجب أن يحصل ذلك

لأن الإنسان قد غفل عن أن نفسه عالم مجهول لا يعرفه على الحقيقة إلا خالقه سبحانه وتعالى، وأن كل ما يعرفه هو ما يظهر له في ممارساته الحياتية، وما خفي أكثر بكثير مما ظهر

(٣) ربك أعلم بك منك

لقد قال ربنا: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤].

كيف يتصور الإنسان أن ربه الذي خلقه لا يعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه؟

وكيف يتصور العبد أن ربه لا يعرفه أو يغيب عنه شأن من شؤونه، وهو يعلم أن ربه ذو القدرة العظيمة على الخلق وذو اللطف التام والخبرة التامة؟

بل إن الله يؤكد أنه سبحانه هو الأعلم بنا،

ولا أحد يعلم ما نحن عليه، وما نحتاج إليه مثله سبحانه

فقال تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} [الإسراء: ٥٤].

وقال سبحانه: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢]

لا أحد أعلم منه سبحانه بكل ما يتعلق بنا؛

حيث يقول لنا: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ} [النساء: ٢٥].

ويقول لنا: {وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٠].

ويقول لنا: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ} [النساء: ٤٥].

ولا تتوهم أن ربك يعرفك فقط؛ إنه يعلم ما في نفسك؛

فيقول لنا سبحانه: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ} [البقرة: ٢٣٥]. ويقول لنا أيضا: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} [الإسراء: ٢٥]. ويقول لنا سبحانه: {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} [الأحزاب: ٥١]، وقال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق: ١٦]

كما يخبرنا سبحانه أنه يعلم ما نُخْفِيه وما نُبْديه، وما نُسرُه وما نُعْلِنُه؛

فيقول لنا ربنا: {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [المائدة: ٩٩]، ويقول لنا سبحانه: {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب: ٥٤].

ويقول لنا أيضا: {وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ} [الممتحنة: ١].

ويقول الله لنا: {يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [التغابن: ٤]، **وقد تكرر ذلك حوالي (٤) مرات في القرآن الكريم؛** [النحل: ١٩]، [النحل: ٢٣]، [البقرة: ٧٧].

ووصف ربنا نفسه حوالي (١٠) مرات في القرآن بأنه:

{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}.

ويخبرنا سبحانه حوالي (١٢) مرة في القرآن الكريم بأنه

{عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

ولذلك فإنه سبحانه يعلم كل ما نعمله، ولا يغيب عنه منه شيء؛ فيقول لنا سبحانه:

{وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٣]، [النور: ٢٨].

ويقول لنا: {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥١].

وبما أنه سبحانه هو الأعلم بما يسعدنا ويصلحنا، فقد أكرمنا بأن أرسل لنا القرآن؛ فقال تعالى عن القرآن:

{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [غافر: ٢].

وقال عنه أيضا:

{أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفرقان: ٦].

وأوصانا ربنا سبحانه أن

♥ نتذكر دوما نعمته علينا حين علم ما نحتاج إليه فأنزل إلينا القرآن، وأرسل لنا الرسول ﷺ يُبَيِّن لنا كيف ننتفع بالقرآن ونتعامل معه؛

كما أوصانا أن

♥ نتيقن أنه سبحانه بكل شيء عليم

فيقول لنا سبحانه: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٣١]

وقال سبحانه للنبي ﷺ :

{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} [النمل: ٦]

♥ ولأنه سبحانه عليم بكل شيء؛ وأعلم بما يُصْلِحُنا مِنَّا، فقد بَيّن لنا في القرآن ما نحتاج إليه، وما يصلح شأننا؛ وبذلك يكون قد

عصمنا من الضلال.

فيقول سبحانه:

{يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النساء: ١٧٦]،

وكلمة (أَنْ) هنا بمعنى (لئلا) أو (لكي لا).

فإن الواحد منا قد يحب شيئا وهو لا يعلم أنه شر له، وقد يكره شيئا وهو لا يعلم أنه خير له؛ لكن ربنا العليم أعلم منا بما هو خير لنا؛ لذا يقول لنا:

{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦].

وكثيرا ما يختم توصياته سبحانه لنا بقوله:

{وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٣٢]، [آل عمران: ٦٦]، [النحل: ٧٤]، [النور: ١٩]

لقد قال اللّه تعالى عن نفسه:

{وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا} [النساء: ٧٠]

فبعلمه سبحانه بنا وبكل شيء قد كفانا كل ما نحتاج إليه ويشغلنا، ويكفينا ويُطَمئننا أنه عليم لا يغيب عنه شيء أبدا.

(٤) قابلتُ نفسي

مـا أروع تلـك العبـارات التي صَـدَرَتْ من البروفيسـور "جيفري لانغ"، لما قرأ القرآن لأول مرة!

فعندما فتح القرآن، وبدأ يقرأ، صدمته هذه الآية الكريمة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]، يقول: "أحسست برعشة تنتابني عندما قرأت هذه الآية، أخذت أفكر في نفسي: هل أنت تخاطبني؟! ... تولد لدي شعور غريب بأن القرآن كان يخاطبني فعلاً!!"

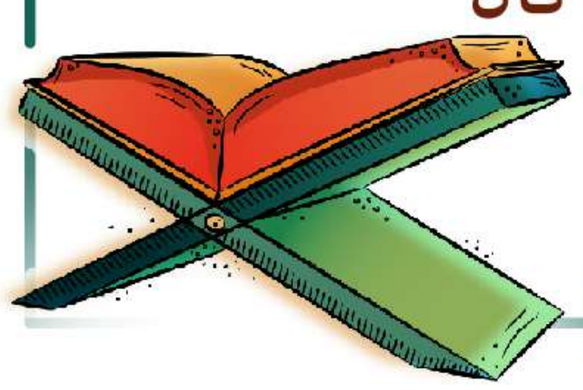

ويقول "هذا هو بالضبط ما نتوقعه من وحي إلهي .. وكلما تقدمت في القرآن ازداد احترامي لطريقته وأساليبه .. لقد تبينت أن المتكلم قد أدخل إلى النص عدداً من المقاطع يعلم أنها ستثير أسئلة وردود فعل معينة لدى القارئ، ومن ثم يجيب على ردود فعله المتوقعة سلفاً في مقاطع تالية، إن القرآن يشغل القارئ بحديث ذهني وروحي ..

لقد أحسست أن المتكلم يعرف على وجه الدقة الطبيعة البشرية"

وقد وصف "جيفري لانغ" شعوره نحو القرآن، ولم يجد أدق من وصف فريدريك دني في كتابه "الإسلام" وهو شخص غير مسلم، ولكن جاء بعبارة أذهلته:

"تلك التجربة العجيبة غير الطبيعية التي يشعر بها المرء أحياناً لدى قراءته القرآن، وتلك اللحظات التي يشعر فيها القارئ بحضور شيء غامض وأحياناً مرعب معه، وبدلاً من قراءة القرآن، فإن القارئ يشعر وكأن القرآن يقرؤه"[1]

ثم قال: "إن الذين يضعون مصالحهم الدنيوية والذاتية فوق الإيمان، هؤلاء لا ينتفعون من قراءة القرآن ما لم يغيروا بُنيتهم الفكرية"[2]

١بتصرف من كتابه "ضياع ديني" (ص: ٣٧-٣٨) نقلا عن مقالة للدكتور خالد الدريس على موقعه بعنوان "وجدتُ القرآن كأنه يقرؤني"

٢ انظر كتبه: حتى الملائكة تسأل (ص: ٢٠٦)، ضياع ديني (ص: ٣٨)، الصراع من أجل الإيمان (ص: ٨١)، نقلا عن المصدر السابق.

صدق والله

لا بد من تغيير البنية الفكرية فيما يتعلق بالتعامل مع القرآن وقراءته، أو قل بعبارة أدق

"تسديد البنية الفكرية وإعادتها إلى ما يريده الله وما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام"،

فتكون القراءة بالتدبر لتحصيل الإيمان وزيادة الدافعية للعمل، ويتحرر الإنسان من أسر البنية الفكرية المختلة التي جعلته يقدم المباني على المعاني، والقرآن "القراءة والضبط" على الإيمان.

من العجيب

أن القرآن يقرؤك وأنت تباشر قراءته، إنه يُبَصِّرك بنقاط ضعفك، ونقاط قوتك، والفرص المتاحة لك، والتهديدات التي تواجهك، إنه يعرفك بنفسك على الحقيقة معرفة تفصيلية.

الأمر أشبه بالبرنامج المضاد للفيروسات على جهاز الحاسوب (الكمبيوتر)، إننا نقوم بفتحه ونعرض عليه هواتفنا المحمولة مثلاً، ونتابع مطالعته.

في الوقت الذي يقوم هو فيه بقراءة وتفتيش وتحليل تلك الهواتف، ثم يقوم بإطلاعنا على مواطن الخلل والقصور والضعف، ومواطن القوة والسلامة.

وكأنه يقوم بعملية تقييم للجهاز الذي تم وضعه عليه.

وكذلك الإنسان حين يعرض نفسه على القرآن

ويفسح المجال للقرآن ليقرأه ويفتشه، فإنه سيتعرف بوضوح على

مواطن الخلل والضعف والقصور، ومواطن القوة والتميز.

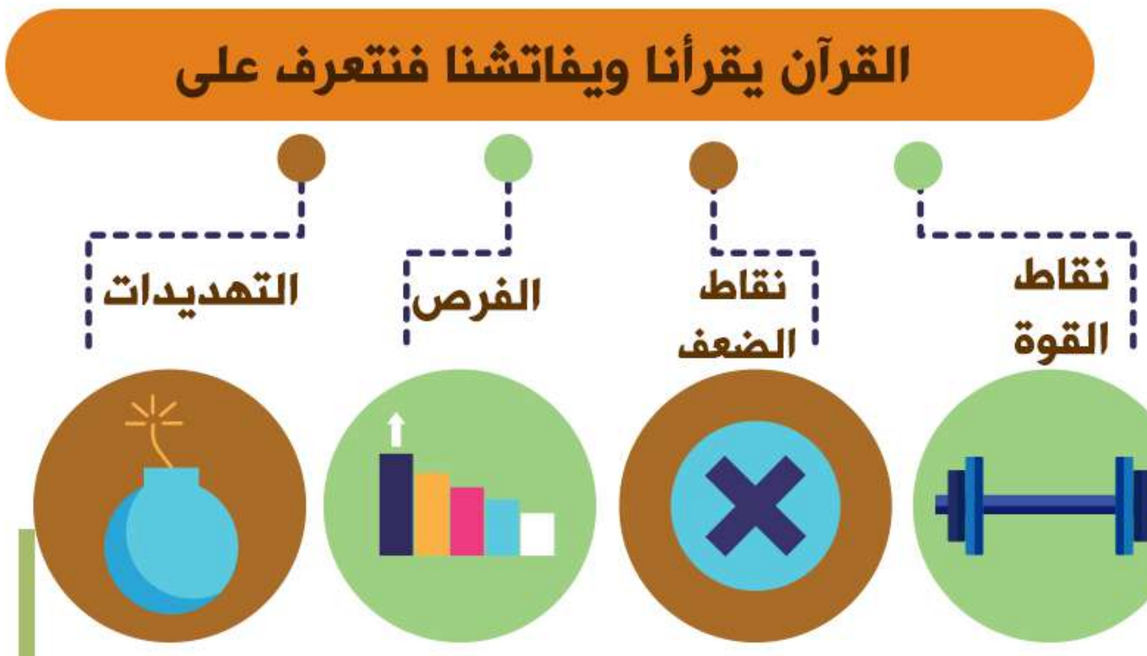

لكن دور القرآن لا يقتصر على التقييم وتقديم التقارير،

وإنما يتخطى ذلك للتقويم وإصلاح التقصير.

ويقول جيفري في كتابه الصراع من أجل الإيمان (ص: ٣٤):

"بدا واضحاً أن المتكلم بهذا القرآن كان يعرفني أكثر من نفسي... لقد كان القرآن يسبقني دوماً في تفكيري ويُزيل الحواجز التي كنتُ قد بنيتها منذ سنوات، وكان يخاطب تساؤلاتي ... ويبدو أن القرآن كان يقرأ أفكاري ... لقد قابلتُ نفسي وجهاً لوجه في صفحات القرآن"

اكتشـــاف

إنـه مُحِقٌ تمامـاً؛ لإن الإنسـان علـى صفحـات القـرآن فعـلاً سـيقابل نفسـه (الموجـودة)، نفسـه الحقيقيـة الواقعيـة التـي هـو عليهـا؛ بنقـاط ضعفها ونقاط قوتها.

فقـد كان يظـن نفسـه مخبتاً فلمـا عـرض نفسـه علـى صفـات المخبتيـن اكتشف أنه ليس منهم.

وقد كان يظن نفسه ضعيفا؛ فلما عرض نفسه على القرآن اكتشف أنه قوي بالله، وعَرف أن الله قد مَيَّزَه ورَقَّاه.

وعلـى صفحـات القـرآن سـيقابل الإنسـان النفـس (المنشـودة) التـي يتمنى أن يكون عليها؛ سيقابل من الأقوال والأحوال ما يبرز له ما ينبغي أن يكون عليه، وما يرسم له طريق الوصول إليه.

سـيقابل نفسـاً كنفـس محمـد ﷺ وإبراهيـم ﷺ وموسـى ﷺ وعيسـى ﷺ وغيرهم من الأطهار الأخيار، وسيتمكن من بناء نفسه من خلال هذا المزيج الرائع الفريد من الأنفس المتميزة التي عَرَّفه القرآن بها.

ويقول جفري لانغ أيضا:

"لقد مرت علي أوقات وأنا أقرأ فيها القرآن، وأكون على وشك الاستسلام، فأشعر أن كلماته تغمرني، وأن الله هو الذي يكلمني من خلال هذا الكتاب، ولا أرتبك إن قلت: إني كنت أتأثر بحيث تنهمر دموعي على وجنتي في مناسبات عديدة، وأشعر أني في حضرة قوة هائلة ورحمة غامرة، كانت اللحظات الروحية هذه تأخذني دائماً على حين غرة، وكنت أحاول مقاومتها، وإبعادها عني، ولكنها كانت أقوى من أن تقاوم، وكانت مؤثرة جداً بحيث لا يمكن دفعها، لذلك كانت مقاومتي تضعف أكثر كلما توغلت في النص"

ضياع ديني (ص: ١٣٦).

(٥) المرآة

دعوني أسألكم سؤالا:

لـمـاذا ينظـر الواحـد منـا في المـرآة؟ ستقولون: لكي يرى نفسه.

فأقول: بل لكي يرى ما لا يمكن أن يراه بنفسه.

إن دور المـرآة لا ينحصـر فـي أن تُطْلعنـا علـى مـا نعـرف، بـل دورها الرئيس في أن تُطْلعنا على ما لا نعرف؛ فتخبرنا أن هناك بقعة سوداء على جبهتنا، ما كنا نعلم بوجودها، أو تطلعنا على حقيقة تلك البقعة وتفاصيلها إن كنا نعلم بوجودها.

وما سبق الحديث عنه مما يتعلق بالمرآة تقريبٌ للدور الذي يقوم به القرآن مع الإنسان؛ فإن الواحد منا لابد له من مرآة تُطْلعه على ما لا يعرفه ولا يراه.

وخصوصا إذا اتفقنا على أن هناك الكثير من مواطن الخلل الظاهرة في سلوكيات وتصرفات الإنسان، ولا يعرف الإنسان أنها لديه إلا حينما يصارحه بها أحدهم في لحظات غضب أو شجار.

بل ربما يعلم الواحد منا أن لديه مواطن خللٍ وتقصير؛ لكنه يخدع نفسه ويحاول التهوين من شأنها أو التغافل عن خطورتها أو وجودها.

ويزيد هذا الأمر سوءً غياب (التناصح) بين الناس؛ فالغالبية العظمى من الناس يؤثر الحديث عنك على الحديث إليك، ويهاب أن يكلمك في أخطائك، ولا يهاب الله فيتحدث عنك من ورائك.

وأغلب الأحباب يتجنبون الحديث عن أخطائنا، خوفا من تعكير صفو الوداد بيننا، أو هرباً من أن يتسبب ذلك في حديثنا نحن الآخرون عن أخطائهم.

رغم أن النبي ﷺ قد أبرز لنا دور الإنسان مع أخيه بقوله:

"الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ" .

سنن أبي داوود (٤٩١٨)، صَحِيح الْجَامِع (٦٦٥٦)

فالمؤمن يحرص على أن يُري أخاه المؤمن ما غاب عنه؛ ولا يقتصر دوره على الإظهار والتقييم، بل يتعداه إلى الحفظ والإصلاح والتقويم.

وقَالَ الْحَسَنُ: «الْمُؤْمِنُ مَرْآةُ أَخِيهِ، إِنْ رَأَى فِيهِ مَا لَا يُعْجِبُهُ سَدَّدَهُ وَقَوَّمَهُ وَحَاطَهُ وَحَفِظَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»١

لذا فإن كل الأمور السابقة مجتمعة جعلت أغلبنا يعيش بلا مرايا،

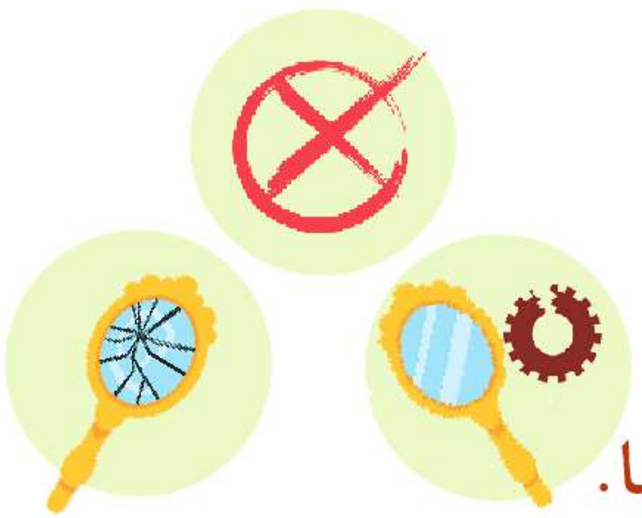

فالمرايا إما غير موجودة،

أو موجودة لكنها تهاب العمل،

أو كانت موجودة ولا تهاب العمل لكننا قمنا بتعطيلها، أو تكسيرها، أو التخلص منها.

ولم تبقَ لنا إلا مرآة واحدة فقط هي أهم تلك المرايا وأفضلها، لأنها مرآة لا تُخْطِئ أبدا، ولا تَكْذِب أبدا، ولا تُجَامِل أبدا، ولا تُنَافِق أبدا، ولا تُهَوِّل أو تبالغ أبدا، ولا تُهَوِّن أبدا، ولا تَظْلِم أبداً.

١ الإخوان لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٧)

ولا تتوقف عن القيام بدورها أبداً،

ولا تمتنع عن القيام بدورها أبداً حتى لو كانت ردة فعلنا لما أخبرتنا به سيئة.

لكننا للأسف الشديد أهملناها رغم أنها معنا، وغَيَّبْناها رغم أنها حاضرة بيننا، وحُرِمنا منها رغم أنها أقرب ما تكون إلينا، لما أسأنا التعامل معها.

قال الآجري في أخلاق أهل القرآن (ص: ٨١):

"فَالْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ إِذَا تَلَا الْقُرْآنَ اسْتَعْرَضَ الْقُرْآن، فَكَانَ كَالْمِرْآةِ، يَرَى بِهَا مَا حَسُنَ مِنْ فِعْلِهِ، وَمَا قَبُحَ مِنْهُ[1]

ونؤكد على أن تلك المرآة لا تكفي حيازتها، بل لابد من حُسْنِ استعمالها، وتقوم (المرآة القرآنية) - لو صح التعبير - بدورها **على أكمل وجه إذا تعامل الإنسان مع القرآن بالتفكر؛**

فقد قال الفضل:

"التفكر مرْآة تريك حَسَنَاتك وسيئاتك"[1].

[1] مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠)

وحينها يجتمع للإنسان مرآتان تُدَّعم كل واحدة منهما الأخرى؛

الأولى (القرآن)، والثانية (التفكر).

إن الدور الذي يقوم به القرآن في تبصير الإنسان بما هو عليه؛

أروع وأكمل بكثير مما تقوم به المرآة.

لأنه لا يقتصر دوره على التبصير بل يتخطاه إلى

التذكير والتطهير والتطوير والتحرير والتنوير، وشفاء ما في الصدور.

فيا أيها الناس!

{قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا} [الأنعام: ١٠٤].

يا أيها الناس!

{هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٣، ٢٠٤].

حَقِّقوا الشرط،

استمعوا بآذانكم وأنصتوا،

واستمعوا بقلوبكم وتدبروا واستجيبوا.

لكننا للأسف الشديد عَطَّلنا لدينا هذا الدور من أدوار القرآن،

ولم نسمح له بالقيام به، لما أهملنا معانيه، وغفلنا عن التدبر فيه.

(٦) أكثر الناس لا يعلمون

فإذا كُنَّا على هذه الحالة التي لا نعرف فيها أنفسنا تماماً على الحقيقة؛ فلعل مَنْ حولنا مِنْ البشر يعرفوننا بصورة أفضل؛ لأنهم لا يعانون مما نعانيه من أوهام شخصية، ولا يتعرضون لما نتعرض له مِنْ تغرير.

فيجيبنا القرآن على ذلك التساؤل، بل على ذلك الوهم؛ بقوله تعالى لنبيه ﷺ:

{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١١٦].

يقول له ربه ذلك وهو أكمل إنسان، وأهدى إنسان، فكيف بمن هم دونه في الكمال والهداية أمثالنا؟

إن السبب واضح؛ فنحن أمام مخلوقات لا تتبع إلا الظن، ولا تملك إلا التخرص.

فكيف ينتظر الإنسان من أمثال هؤلاء أن يهدوه أو حتى يساعدوه؟

وتأمل ذلك العرض المنطقي البديع؛ يقول ربنا جل جلاله:

{أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٣٥، ٣٦]

سبحان اللّه!

أيهما أحق أن يُتَّبَع يا عبدَ اللّه؟!

مَن يملك الحق، ولديه كل الحقائق، أَمْ مَنْ لا يملك إلا الظن، ولا يسلم من المزالق؟!!!

لقد أفلستْ كل المناهج الأرضية التي من صنع البشر؛ لأن أولئك لا يعرفون عن أنفسهم إلا الظن والتخرصات؛ ولا تزيد معرفتهم عن غيرهم على ذلك الذي عرفوه عن أنفسهم.

إنهم لا يستطيعون هداية أنفسهم لما يسعدها ويصلحها

فكيف يهدون غيرهم لما يسعده ويصلحه؟!

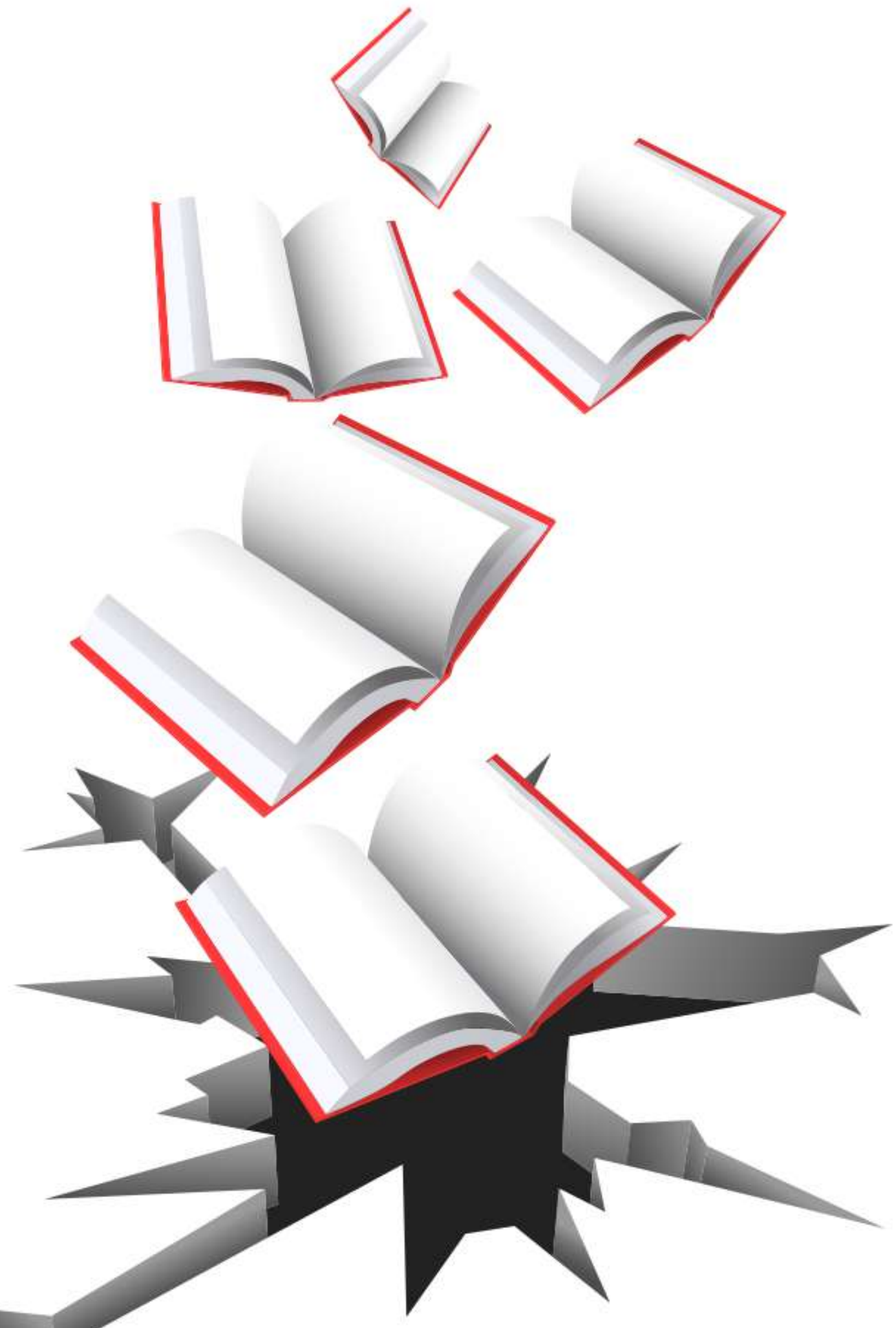

ولذلك يؤكد الله عزوجل في عدد كبير من الآيات على هذه الحقيقة الناصعة

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٨٧].

إنهم لا يعلمون أن الله غالب على أمره؛ يقول تعالى:

{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١]

ولا يعلمون ما هو الدين الأقوم والمنهج الأسلم؟

يقول تعالى: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٤٠]، [الروم: ٣٠]

ولا يعلمون أن الله هو الذي يُعَلِّم الإنسان؛

فيقول تعالى: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٦٨]

ولا يعلمون أن وعد الله حق؛ وأن قوله الصدق؛

فيقول تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل: ٣٨]

ولا يعلمون أن اللّه لا يخلف وعده، ولا ينكث عهده؛

فيقول تعالى: {وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٦]

ولا يعلمون عظمة ما أرسل به رسوله من البشارة والنذارة للناس أجمعين؛ ولا يعلمون عظمة رسوله ﷺ الذي أرسله؛

فيقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨]

ولا يعلمون شيئا عن تدبير شؤون المخلوقات واتزان أمورها، وما يتعلق برزقها، بسطاً وتقديرا؛

فيقول تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٣٦]

فقل لي بربك: ما الذي يعلمه الناس إذن؟

إنهم لا يعلمون ما يتعلق بمصالح الإنسان البدنية.

ولا يعلمون ما يتعلق بمصالحه الدينية.

ولا يعلمون ما يتعلق بإصلاح دنياه.

المصالح البدنية | المصالح الدينية | مصالح الدنيا

ولا يعلمون عن خلق السماوات والأرض إلا قطرة من ذلك البحر

عَلَّمَهم اللّه إياها، ولا يعلمون ما في ذلك من الآيات التي هي أكبر من الآيات التي في الأنفس؛

فيقول تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر: ٥٧]

ولا يعلمون أين كانوا؟

ولا أين سيكونون؟

لأن اللّه هو وحده الذي يعلم ذلك؛ فيقول تعالى:

{قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: ٢٦]

ولا يعلمون ما يتعلق بإصلاح أُخْرَاه.

ولا يعلمون ما يتعلق بإصلاحه لنفسه.

ولا يعلمون ما يتعلق بإصلاحه لغيره.

أُخْرَاه.	نفسه	غيره

فعجبا لذلك الجهول،

الذي يبتغي العلم عند مَن هو أجهل منه،

ويترك اللطيف الخبير!

وعجبا لذلك المُتَحَيِّر،

الذي يبتغي الهدى عند مَن هو أكثر منه حيرة،

ويترك الهادي البصير!

وعجباً لذلك العاجز،

الذي يستقدر بمن هو أعجز منه، ويترك العزيز القدير!

وعجباً لذلك الضعيف الصغير،

الذي يستقوي بمن هو أضعف منه، ويترك القوي الكبير!

وعجباً لذلك الفقير،

الذي يستغني بمن هو أفقر منه، ويترك الغني الشكور!

ثانياً: ما هي أبرز صفات الإنسان في القرآن؟

لقد أحسنَ القرآن وَأَجَادَ، وَأَبدَعَ وَأَفَادَ في الحديث عن صفات الإنسان العامة والخاصة.

لقد أَحْسَنَ لدرجةٍ أَرَاها كافيةً شافيةً لا تحتاج معها لابتداع أو اختراع وإنما يكفي التقريب والاتباع.

ولم يقتصر دور القرآن على التنبيه لما يحتاج للمعالجة والتطهير، وإنما نَبَّهَ أيضاً لما يحتاج للاستثمار والتطوير.

ولم يكن عرض تلك الصفات بالمنهجية التي تَصُبُّ كل اهتمامها على عرض المشكلات، وإنما تَمَيَّز العرض القرآني بعرض الحلول والعلاجات.

ومعظم ما عرضه القرآن مما يتعلق بالمشكلات والتحديات التي يواجهها الإنسان، قد شَفَعَه ببيان أن أقصر الحلول تَكمُن في حسن استثمار ذلك الكنز المهجور والسراج المُنير.

* المعالجة والتطهير
* الاستثمار والتطوير
* الحلول والعلاجات

ولقد قُمنا بعرض أبرز صفات الإنسان الأصلية في كتابنا (رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن)؛ لذا نوصي بشدة بمطالعته فيما يتعلق بهذا الموضوع؛ لأنه لا يمكننا هنا العرض بالتفصيل، والأمر لا يصلح فيه الإيجاز.

وهذه قائمة بما تم عرضه:

(١) جهول.

(٢) أَخْرَجَكُمْ ... لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا.

(٣) ضعيف.

(٤) يفجر أمامه.

(٥) كُلُّكم ضالٌ إلا...

(٦) هلوع جزوع منوع.

(٧) قتور

(٨) يئوس قَنوط.

(٩) في كَبَد.

(١٠) في خُسْر.

(١١) في صراع مع الشيطان.

(١٢) في صراع مع النسيان.

(١٣) عَجول.

(١٤) أكثر شيء جدلا.

(١٥) فَرِح فخور.

(١٦) يطغى أن رآه استغنى.

(١٧) ظلوم.

(١٨) كفور كَفَّار.

(١٩) كنود.

الحملة العالمية لاكتشاف ما يقدمه لنا القرآن

[١] فكرتها وأهميتها.

كثير من الدول والمؤسسات تُدَشِّن الحملات لاكتشاف كنوزها، التي لا ينتبه الناس لها، ويقعون في أهمالها، **وليس هناك كنز في هذه الدنيا أعظم من (القرآن).**

لكنه للأسف، غيرُ مُكتَشَف، فما يطال حقوق القرآن من تقصير، حَرَمَنا من عطائه الكبير، وجعل نصيبنا من بركاته النذر اليسير.

وكل مشكلةٍ نحياها سببها آية أو سورة أهملناها؛

والإنسان لن يكون في عصمةٍ وأمان، من الضلال والشقاء والمخاوف والأحزان، إلا من خلال القرآن.

قال تعالى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: ١٢٣]، وقال سبحانه: {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٣٨]

ولَـمَّـا كان من عادة الدول والمؤسسات أن تدشن حملات عالمية لمكافحة ما يضر بالأبدان.

رأينا أن مكافحة ما يضر بالإيمان وما يخص القرآن أولى؛ لذا قمنا بتدشين هذه الحملة العالمية.

وكلنا رجاءٌ وأمل، أن يوفقنا الله لما يرضيه من العمل، وأن يعيننا على إصلاح الخلل.

[٢] أبرز آلياتها.

(١) نشر مواد علمية (مكتوبة ومسموعة ومرئية) حول اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن (المواد العلمية لمشروع القرآن علم وعمل وخصوصا كتاب [رحلة اكتشاف].

(٢) تثقيف شرائح المجتمع المختلفة حول ضرورة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن، من خلال محاضرات ومقاطع إعلامية.

(٣) تدريب شرائح المجتمع المختلفة على كيفية اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن للنفس وللغير من خلال دورات تدريبية مكثفة.

الفهرس

قصة رمزية ونماذج واقعية..... (ص: ٣)

كَنْزِيِّة القرآن.....(ص: ١٥)

تثوير القرآن.....(ص: ٢٥)

من ثمرات اكتشاف القرآن.....(ص: ٢٨)

مراحل اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن.....(ص: ٣٥)

المرحلة الأولى: حاجة الإنسان إلى القرآن.....(ص: ٣٨)

تمهيد.....(ص: ٣٩)

أحسن الحديث.....(ص: ٤١)

المحطة الأولى: حَدِّثْنِي عنك

(حديث القرآن عن الرحمن).....(ص: ٥٢)

(١) المعرفة التالفة.....(ص: ٥٦)

(٢) رحلة استكشافية.....(ص: ٦٢)

(٣) أول الواجبات وأهم المهمات.....(ص: ٦٦)

(٤) أشرف وأعظم المعارف والعلوم.....(ص: ٦٨)

(٥) ختمة محبة.....(ص: ٧٢)

المحطة الثانية: حَدِّثْنِي عني

(حديث القرآن عن الإنسان).....(ص: ٧٦)

أولاً: لماذا الاقتصار على القرآن؟.....(ص: ٧٩)

(١) دوائر الابتلاءات.....(ص: ٧٩)

(٢) أكثر شيء لا نعرفه.....(ص: ٨٣)

(٣) ربك أعلم بك منك.....(ص: ٨٥)

(٤) قابلتُ نفسي.....(ص: ٩٠)

(٥) المرآة.....(ص: ٩٦)

(٦) أكثر الناس لا يعلمون.....(ص: ١٠١)

ثانيا: ما هي أبرز صفات الإنسان في القرآن؟....(ص: ١٠٧)

الحملة العالمية لاكتشاف ما يقدمه لنا القرآن....(ص: ١٠٩)

نبض الكتاب

❤ إن قلبي يكاد يتقطع وأنا أرى أمام عيني كثيرا من المسلمين يعانون من آلاف المشكلات، وتتربص بهم ملايين المُلهيات، فيبحثون عن الحلول في كل مكان، ويغفلون عن القرآن، وينسون أنه لا صلاح لمكان ولا زمان ولا إنسان إلا بالقرآن.

هذا من الكتب التي (تُقرأ بالقلب لا بالعين)؛ لأن كل كلمة فيه قد اقتاتت من قلبي، وعايشتها بنفسي، فالكتاب كأنه (قصيدة يتحدث فيها مُحبٌّ عن محبوبه).

ومهما كانت علاقتك السابقة بالقرآن؛ فإنني أوصيك أن تقرأ هذا الكتاب، وكأنك للتو عرفتَ أن هناك كتاب اسمه (القرآن)، وتريد اكتشافه والتعرف عليه.

❤ وددتُ لو أَسْمَعَتْ كلماتي عن القرآن كل الآذان، وتمنيتُ لو وصلت مشاعري عن القرآن لكل وجدان، ورجوتُ أن أتمكن من تبليغ القرآن إلى كل إنسان.

اللهم بَلِّغني بنيتي وأملي، ما قَصر عن بلوغه جهدي وعملي.

0204928